روايات عالمية للناشئة

أحدب نوتردام

فيكتور هيغو

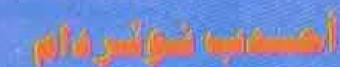
RABIE

أحدب نوتردام

فيكتور هيغو

RABIE

20



فيكتور هيغو

تجري أحداث هذه القصة في باريس أثناء العصر الوسيط، وتتهم الغجرية إسميرالدة بالسحر والشعوذة، وتقدم إلى منصة الإعدام، ولكن كازيمودو قارع النواقيس الأحدب في كنيسة نوتردام يحاول إنقاذها. فهل ينجح في ذلك؟.

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17 ـ حرب النار
18ـ الحوت الأبيض
19ـ كتاب الأدغال
20 ـ أحدب نوتردام
21 ـ الورد الصغير
22 ـ الشيطان الصغير
23 ـ أحزان سوفي
24 ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE
سورية - حلب

أحدب نوتردام

(فيكتور هيغو)

1885 –1802

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـــراف : محمـــد كمـــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



أحدب نوتردام

المسرحية

في السادس من كانون الثاني سنة **1482** ، قرعت نواقيس كنائس المدينة ونواقيس الجامعة ، توقظ الباريسيين وتدعوهم إلى احتفالين بآن واحد ، الاحتفال بيوم الملوك وعيد المجانين .

وسوف تقوم الاحتفالات في ثلاثة أماكن : في ساحة كريف ، وأمام كنيسة براك ، وأما المسرحية فتمثل في قصر العدل . فتوافد الناس رجالاً ونساءً منذ الصباح ، وأغلقت البيوت والحوانيت ، وتوجهوا إلى أحد الأماكن المذكورة . وأما العدد الأكبر من الناس فقد توجهوا نحو قاعة قصر العدل حيث تمثل المسرحية . ولعل هذا بدافع حب الباريسيين للمسرح ، يضاف إلى ذلك أن المسرحية تمثل في مكان مكشوف ومغلق ، مما يوحي بأنه عرض حقيقي . كما

أنه قد أعلن عن زواج ولي العهد بمرغريت دي فلاندر . وقد اقترح السفراء الفلمنكيون الاشتراك في مشاهدة المسرحية ، وانتخاب (بابا المجانين) الذي سيجري في القاعة الكبرى أيضاً . وسيرافق هؤلاء الحكام بعض الشخصيات الهامة ، مثل صاحب النيافة كردينال بوربون وقاضي القصر الملكي . وقد أقيمت له منصة مزينة بنسيج البروكار المذهب ، وسط القاعة في مواجهة الطاولة الرخامية الكبيرة التي ستعرض عليها المسرحية ، طبقاً للأعراف المتبعة .

المفترض أن يبدأ العرض ظهراً . وقد تأخر العرض لانتظار وصول المبعوثين الفلمنكيين . وللأسف .. انتصف النهار دون أن يظهر هؤلاء المبعوثون .

أما الجمهور الذي ينتظر منذ الصباح فقد انتشرت بينه همهمة تحولت إلى تذمر ، وارتفعت الأصوات بعدئذ بالهتاف :

– المسرحية .. المسرحية !

كانت أصوات طلاب المدارس المتعطشين للحركة والهتاف والشجار وممازحة الناس . وقد تميز من بينهم شاب أشقر الشعر وقف يهتف فوق الشرفة ، وكان اسمه يوهان فرولو ، وهو شقيق رئيس أساقفة كنيسة نوتردام الدون كلود فرولو . وتعالت الأصوات من كل جانب : المسرحية .. المسرحية !

وحاول أحد الممثلين أن يهدئ الجمهور فصرخ بأعلى صوته : سنبدأ حينما يصل صاحب النيافة الكردينال .

ولكن صوته ضاع بين هتافات الاستنكار . وصرخ الجمهور : ابدؤوا المسرحية حالاً .. ابدؤوها حالاً !

فاضطر الممثل الذي يلعب دور جوبيتر إلى البدء ، وكان شاحب الوجه بملابس حمراء ، فأمسك خوذته بيده وقال متلعثماً : أصحاب السعادة السفراء .. مدام مرغريت دي فلاندر .. وكان خائفاً من أن يشنق ، إما من طرف الجمهور إذا لم يبدأ العرض أو من طرف الكردينال إذا بدأه قبل

حضوره . فكان جوبيتر واقعاً بين مشنقتين ! ولحسن حظه فإن مؤلف المسرحية انتشله من هذه الورطة وتحمل عنه مسؤوليتها ، فقال : ابدأ فوراً .. بناء على طلب الجمهور .

واقتربت فتاتان من مؤلف المسرحية ، وسألته إحداهما :

– هل تعدنا بأن تكون المسرحية جيدة ؟

فأجاب : لا ريب في ذلك ، لأني أنا مؤلفها .. واسمي بيير غرينغوار .

قال ذلك بلهجة اعتزاز لا يجرؤ عليها بيير كورناي مؤلف مسرحية " السيد " .

وصدحت الموسيقا وارتفع الستار عن أربع شخصيات قد صبغت وجوهها بالمساحيق وارتدت ملابس زاهية الألوان . وبدأت المسرحية بأن صبت على الجمهور طوفاناً من الاستعارات والحكم والأمثال تتدفق بها أفواه الشخصيات المجازية الأربع : الشخصية الأولى تحمل مجرفة وهي مرتدية ثوباً من الخيش وتمثل العمل ، والثانية مرتدية ثوباً من

البروكار وتمثل النَّبالة ، والثالثة في ثوب من الحرير وتمثل رجال الدين ، والرابعة في ثوب من الصوف وتمثل السلعة .

ونشب النـــزاع بين السيدة النبالة والسيدة السلعة ، وحينما نطق السيد العمل بهذه الجملة :

" لا تجد في الغابة وحشاً أشد فتكاً من هذا الحيوان "

فتح باب المنصة الخاصة وزأر مدير التشريفات :

– صاحب النيافة ، مونسنيور كردينال دي بوربون .

الفصل الثاني

متاعب شاعر

يالبؤس الشاعر !

إن ما كان يخشاه قد حصل ، إذ أهاج الجمهورَ دخول الكردينال ، ولم تعد تسمع سوى هذه الكلمة تتردد على الشفاه : الكردينال .. الكردينال !

وسكت الممثل ، وأما الكردينال فحيا الحضور بابتسامة زائفة وتوجه بخطوات رزينة نحو مقعده المخملي ، وجلس وكأن فكره مشغول بأمر آخر ، وتبعته حاشيته ، فأثارتِ مثلما أثار دخوله من الضوضاء . فهذا يشير إليهم بيده وآخر يذكر أسماءهم وثالث يزعم أنه يعرف بعضهم ..

ولم ينـــزعج الكردينال لهذه الفوضى ، إذ اقتضت الأعراف أن تباح الحريات في هذا اليوم . وكان مهموماً بأمر آخر يتبعه عن كثب ، وقد دخل معه إلى المنصة في وقت

واحد : إنه سفير الفلاند . وقد كَبُر عليه وهو شارل دي بوربون كردينال فرنسا أن يساير هؤلاء الفلمنكيين ويضمه معهم مكان واحد . وحينما أعلن مدير التشريفات :

– السادة مبعوثو سيادة دوق النمسا !

التفت الكردينال نحو الباب بدماثة أخلاق لا توصف ، ودخل زوجاً بعد زوج الثمانية والأربعون سفيراً لمكسمليان النمسا . فيهم القضاة والضباط والمستشارون غارقين في أثواب من المخمل والحرير الدمشقي المطرزة بخيوط الذهب القبرصي ، وكانوا من الفلمنكيين الأصلاء . وقد تميز من بينهم وجه نابه داهية شبيه بوجه القرد ، فحياه الكردينال تحية مضاعفة وانحنى أمامه وهو يدعى غليوم ريم مستشار مدينة غند .

وقلة من الناس تعرف من هو غليوم ريم ، إنه أحد تلك الشخصيات العبقرية التي تحيك المؤامرات مع الملك لويس الحادي عشر المطلعة على أدق أسراره .

حينما كان سفير غند وصاحب النيافة يتبادلان التحيات اقتحم الحاشية رجل طويل القامة عريض الوجه ووقف في مواجهة غليوم ريم ، فكأنه كلب بولدغ أمام ثعلب ، وكانت قبعته المصنوعة من اللباد وسترته الجلدية كالبقعة الوسخة بين كل هذه الثياب المخملية والحريرية المحيطة به ، وحسبه مدير التشريفات سائساً ضل طريقه ، فأوقفه قائلاً : يا صاحبي .. المرور ممنوع !

فهتف به : ماذا تريد مني أيها السخيف ؟ ألا تعرف من أنا ؟ فقال له : ما اسمك ؟

– جاك كوبنول .

– وما مرتبتك ؟

– صانع الجوارب من ماركة السنديانات في مدينة غند !

وتراجع مدير التشريفات دهشة ، لقد قبل أن يعلن عن وصول رئيس بلدية أو مساعده ، أما أن يعلن عن صانع الجوارب !

حيا كوبنول صاحب النيافة وهو هادئ الملامح وظهرت على الكردينال علائم القلق ، واتخذ كل منهما مقعده .

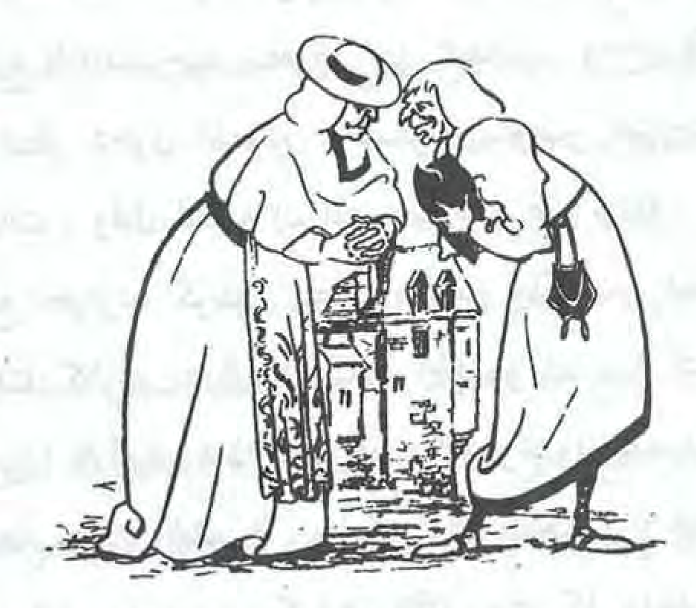
نعود إلى المسرحية ومؤلفها فقد نسيناهما تماماً ، ماذا فعل المؤلف العتيد ؟ لقد تصور استراتيجية تنقذ مسرحيته ، فانضمّ إلى الجمهور وجعل يهتف بصوت مرتفع :

– المسرحية .. استأنفوا المسرحية !

فاستأنف الممثلون حوارهم وجدالهم ، وتنفس غرينغوار بارتياح لأن مسرحيته ستعرض حتى النهاية .. وخاب فأله ! لقد انتظر دخول المبعوثين والسفراء ، وصبر على تبادل التحيات ، وقال لنفسه إن المسرحية ستعرض كاملة ، وإذا بصانع الجوارب كوبنول ينهض والناس ساكتون ، فيصرخ بصوت كالزئير : أيها السادة الحضور .. ويا أشراف باريس ! لا أدري ماذا نفعل هنا ، لقد وعدونا بعيد المجانين وانتخاب (بابا المجانين) ، وإليكم كيف ننتخبه في (غند) : يكون الناس متجمهرين كما هم الآن ، ويمد كل واحد منهم

رأسه من نافذة ، ويبدل ملامحه ساخراً ، فمن يجلب انتباه الناس واستحساهم يُنتخب (بابا المجانين) وأقترح عليهم هذه الطريقة ، فما رأي السادة الأشراف ؟

وقوبل اقتراحه بالتهليل والترحاب ، وكانت معارضته مستحيلة ، بحيث إن الغضب والاستياء قد ألجما المؤلف غرينغوار ، فلم يعد قادراً على الكلام ، وأخفى وجهه بين كفيه .



الفصل الثالث

كازيمودو

أصبح كل شيء جاهزاً بلمح البصر لتنفيذ اقتراح كوبنول ، وقد وقع الاختيار على مُصلى القصر أمام طاولة الرخام ليكون مسرحاً تعرض فيه تكشيرات المتنافسين ، فكُسر زجاج إحدى النوافذ الصغيرة لكي يُطلّ منه المتسابق برأسه ، وكان كوبنول من مقعده يأمر وينهى ويرتب الأمور . وفي غمرة هذا الهياج نهض الكردينال مُحتجاً بموعد الصلاة وانسحب مع حاشيته ، دون أن يثير انصرافُه الضجةَ التي أثارها حضوره ، وأصبح المجال فسيحاً أمام كل أنواع السخافات ، ولم يبق سوى الفلمنكيين والدهماء .

وبدأت مباراة التكشير وتبديل ملامح الوجه من خلال تلك النافذة الصغيرة في المُصلّى ، فكنت ترى أشنع ما يمكن لملامح الوجه الإنساني أن تبلغه من التعابير ومن الصور

الحيوانية ، والجمهور يصرخ ويصرخ وقد أهاجه هذا الكرنفال من الكوابيس .

فجأة سُمعت عاصفة من التصفيق ممتزجة بهتافات مدوية هزت المجلس ، لقد انتُخب (بابا المجانين) ، والجمهور يصرخ من كل جانب : نويل .. نويل .. نويل .

كانت تكشيرةً فظيعة تظهر داخل إطار النافذة ، تكشيرةً أدهشت الحاضرين واكتسحت أصواتهم .



سنحاول أن نعرض للقارئ فكرة تقريبية عن هذا الوجه الذي ظهر في إطار النافذة ، فالأنف مثلث السطوح والفم على شكل حدوة الحصان والعين اليسرى يغطيها حاجب كثيف والعين اليمنى مختفية تماماً تحت تجعدات الجفنين ، وأما الأسنان فهي مشتتة هنا وهناك كأنها سور قلعة قديمة ، والشفتان الدبقتان تنفرجان عن ناب بارز كناب الفيل ، والذقن مشقوق في وسطه . ويخيم على ذلك كله مزيج من المكر والدهشة والكآبة . تصور هذا الوجه إن استطعت .

حين زفّوا من المُصلّى (البابا) الجديد ، بلغ الإعجاب به مداه ، فما حسبوه تكشيرة مصطنعة كان وجهَهُ الحقيقي ، إذ كان شخصُه كله تكشيرةً واحدة ، يضاف إلى هذا حدبةٌ كبيرة تُثقل ظهره وتحنيه إلى الأمام . وأما ساقاه فتلتقيان عند الركبتين وكأنهما قوسان محنيتان تلتقيان عند المقبض ، ويناسب هذا التشويه عزم قوي وإرادة ثابتة وشجاعة عظيمة .

حين أطلّ هذا المشوّه على عتبة المصلّى ثابتاً ضخماً طوله داخل في عرضه ، عرفه الجمهور فوراً وهتفوا بصوت واحد :

– إنه كازيمودو قارع النواقيس .. إنه أحدب نوتردام .. كازيمودو الأعور .. كازيمودو الأعوج الساقين .

أما هو فقد وقف رزيناً هادئاً لكي يتأمله الناس ، وحينما اقترب منه أحد تلاميذ المدارس هازئاً به أمسك به من حزامه دون أن يبذل جهداً ورماه فوق الناس ولم ينطق بكلمة واحدة ، حينئذٍ أُفرغت من حوله حلقةٌ من الرهبة والهيبة مُحيطها خمس عشرة خطوة على الأقل ، وقيل للمعلم كوبنول إن كازديمودو أصمّ . فقال كوبنول :

– أصمّ ؟ لقد اكتمل إذن ، وهل هذا المخلوق أخرس أيضاً ؟

– إنه يتكلم حين يريد ، لقد أصبح أصمّ من أصوات النواقيس ، وهو ليس أخرس .

أثناء ذلك ألبس كازيمودو طرطوراً من الورق وثوباً فضفاضاً خاصاً بـــ (بابا المجانين) ، ثم حمله اثنا عشر ضابطاً من أخوية المجانين فوق محفّة مزينة ، وقد فاض وجهه الكئيب بفرح غامر حينما رأى تحت قدميه المعوجّتين رؤوس هؤلاء الرجال الأشداء المكتملي البنيان ، ومضى الموكب الهائج في جولة داخل ردهات القصر ، ثم خرج يطوف الشوارع . وفجأة صرخ بعض المُجّان :

– الاسميرالدة .. الإسميرالدة !

وكان لهذا الاسم تأثير السحر ، واندفع كل من بقي في القاعة إلى النوافذ وتسلقوا الجدران ليتفرجوا وهم يهتفون :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

على حين ارتفعت من الساحة عاصفة من التصفيق ، وزمجر غرينغوار :

– ما هذه الإسميرالدة ؟

الفصل الرابع

العنـزة ذات القدمين الذهبيتين

حينما وصل بيير غرينغوار إلى ساحة كريف أحس بروعة ما يحدث ، فقد رأى ناراً احتفالية هائلة تشتعل وسط الساحة ويحيط بها جمهور غفير من الناس ، وضمن المساحة الخالية بين الجمهور والنار كانت ترقص فتاة ، ولم يدر غرينغوار كيف يصف جمالها ، أهي من البشر أم من الجن ، أم هي مخلوق سماوي لا يعرف له اسماً .

لم تكن فارعة الطول ولكنها هيفاء ممشوقة القوام ، وكانت سمراء سُمرةً ذهبيةً عُرفت بها فتيات الأندلس ، وتنقل قدمين رشيقتين لا تكادان تمسان الأرض إلا مساً رفيقاً ، وترقص على قرع الطبلة كالفراشة فوق بساط عجمي عتيق ، وقد أحاطت بها الأنظار وفغرت الأفواه دهشةً ، فكأنها ليست من مخلوقات هذه الأرض وإنما حورية هربت

من بساتين النعيم ، وقد انسدلت إحدى جدائلها الكثيفة على كتفها بعد أن تفلتت من حبكة النحاس التي تمسك بها وتدحرجت إلى الأرض ، فعرف غرينغوار أنها إحدى الغجريات ، وزالت عنه أوهامه .

تابعت الغجرية رقصها على أضواء النار الحمراء التي تنعكس على الوجوه المحيطة بها فتزيد من الإحساس بالتهاب عواطفهم .

بين هذه الآلاف من الوجوه كان وجه واحد قد استغرق في تأمل هذه الراقصة ، إنه وجه رجل شديد الملامح لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، ولكنه أصلع الرأس وما بقي من شعره قد شاب ، عريض الجبين قد بدأت التجاعيد تغزوه ، ولكن عينيه تلمعان لمعاناً شرساً ، ولم يرفعهما عن هذه الغجرية ابنة السادسة عشرة التي تكاد تطير والجمهور مستمتع برقصها ، وحين أنهكها الرقص توقفت وصفق لها الجمهور إعجاباً ، فنادت الغجرية :

– جالي !

حينئذ رأى غرينغوار عنــزة صغيرة بيضاء تثغو متوفزة ، يلتمع قرناها المذهّبان وقدماها المذهبتان والعقد الذهبي في رقبتها . وقالت الراقصة :

– جالي .. جاء دورك الآن .

وجلست أمام العنــزة وأمسكت الطبلة أمامها ، وسألتها :

– جالي .. في أي شهر نحن الآن ؟

فرفعت العنــزة قدمها وضربت على الطبلة مرة واحدة ، وكان فعلاً الشهر الأول ، وصفق الجمهور لها ، ثم قالت الفتاة :

– في أي يوم من الشهر نحن الآن ؟

فرفعت العنــزة قدمها الصغيرة المذهبة وضربت على الطبلة ست ضربات ، وسألتها الغجرية :

– كم الساعة الآن ؟

فضربت سبع ضربات . وفي تلك اللحظة قرعت ساعة الساحة سبع مرات ، وذهل الناس ، وهتف صوت كئيب من الحاضرين :

– هذا سحر .. لا بد أنه السحر .

كان صوت ذلك الرجل الأصلع ، وارتعدت الغجرية ، لكن تصفيق المتفرجين طغى على صوته ، فخاطبته الغجرية :

– كيف يفعل رئيس الحرس ؟

فوقفت جالي على قدميها الخلفيتين وبدأت تثغو وتمشي مشية منتظمة حتى انفجر المتفرجون بالضحك لرؤية هذا التقليد الساخر لرئيس الحرس ، وشجع هذا النجاح الغجرية على طلب المزيد من العنــزة ، فقالت :

– جالي .. كيف يخطب القس جاك شار مولي أمام الملك ؟

فوقفت العنـــزة على قدميها الخلفيتين وبدأت تثغو وتحرك يديها بطرقة عجيبة وكأنها تقلد أخطاءه اللغوية وطريقته في الإلقاء . صفق الجمهور طويلاً .

وعاد الصوت إلى الصراخ عالياً :

– كفر وسحر .. وتدنيس للمقدسات .

فقالت الغجرية :

– آه .. هذا الرجل الشنيع !

ثم شدت قامتها وأمسكت الطبلة ودارت عدة دورات على عقب قدمها ، وبدأت تجمع من الناس الصدقات ، وانهمرت عليها قطع النقود من نحاسية وفضية ، وفجأة وقفتْ أمام غرينغوار فوضع يده بسرعة في جيبه وقال وهو يواجه الحقيقة ، أي الفراغ : يا رب !

والفتاة الحسناء واقفة أمامه تمد يدها بطبلتها ، والعرق يتصبب من جبهة غرينغوار ، وأحس كأن الدوار يعصف برأسه ، وتخيل نفسه في مكان بعيد مختلف تماماً ، ولم ينتزعه

من عالم خيالاته سوى غناء عجيب متناسق الألحان ، إنه صوت الغجرية يصدح ، فلم يدر هل يعجب بحسنها أم برقصها أم بغنائها ، كانت مكتملة الصفات ، وأحس غرينغوار بالدموع تنسكب من عينيه .

الآن ظهر موكب (بابا المجانين) بعد أن تجول في الأزقة والحارات ووصل إلى ساحة كريف بكل مشاعله وأصواته ، وقد عرف القارئ كيف تمّ انتخاب هذا البابا في قصر العدل ، وانضم إلى هذا الموكب في مسيرته كل ما يمكن أن تحويه باريس من متشردين ومتسكعين ومشوهين وعاجزين ولصوص من قاع المجتمع .

كان في طليعة الموكب ملك الغجر راكباً حصاناً ترافقه حاشيته ماشية حوله ، وقد أمسك بالرسن كأنه من كبار المحاربين ، ثم تبعته مملكة الرعاع ، أي ما تحويه فرنسا من لصوص وقطاع الطرق ، وقد انتظموا صفوفاً أربعةً أربعةً ، الأقل مالاً والأشد فساداً في الطليعة ، ثم يتلوهم الآخرون

على مراتبهم ، فترى الشحاذين ولصوص الأسواق والعميان العاجزين والمشردين من اليتامى .

وسط هذا الجمهور ترى الضباط الكبار لأخوية المجانين يحملون على أكتافهم محفّة مزينة بالشموع الموقدة ، وقد جلس فوقها (بابا المجانين) الجديد قارع النواقيس في كنيسة نوتردام كازيمودو الأحدب وهو في أبهى زينة .

لا يمكننا أن نصف اعتزاز كازيمودو والفرحة التي ارتسمت على وجهه المشوه الكئيب أثناء رحلته من قصر العدل إلى ساحة كريف ، إذ كانت هذه أول مرة يهتم به أحد أو ينتبه إلى وجوده ، فلم يلق سوى الإهانة والتقزز وأبشع الصفات التي يوصف بها إنسان ، وعلى الرغم من أنه أصمّ فقد كان يستمتع بهتافات هذا الجمهور الذي يرفعه على الأعناق كأنه بابا حقيقي ، وإن كان هذا الجمهور حثالة من المجانين والمعتوهين والمتسولين فلا يهتم لذلك .. إنها رعيته وهو الحاكم عليها ، وكان يحمل على محمل الجد كل هذه

الهتافات الهازئة به ، وكل آيات الاحترام الساخرة منه يبديها الجمهور نحوه ممزوجة بشيء من الرهبة ، فقد كان الأحدب قوياً ، وكان معوجّ الساقين سريع الحركة ، وكان الأصمّ شريراً ، وهذه الصفات الثلاثة يخشاها الحمقى ، لذلك فوجئ الناس حين مر الموكب أمام بيت الأعمدة برؤية رجل اندفع من بين الجمهور وانتزع بحركة غاضبة من يد كازيمودو صليبه المذهب علامة سلطته البابوية . لم يكن ذلك الرجل سوى الأصلع الذي كان يصرخ بالغجرية ساخطاً عليها ويتهمها بالسحر والكفر ، وحين مر بجانب غرينغوار هتف هذا مذهولاً :

– إنه كلود فرولو رئيس الأساقفة ، ماذا يريد من هذا الأعور ؟ سيفتك به .

وارتفعت صرخة رعب ونزل كازيمودو عن المحفة ، فأدارت النساء بصرهن لئلا يشهدن مصرع رئيس الأساقفة ، وقفز حتى وقف أمامه ، ورفع بصره إليه ثم خرّ راكعاً ،

فانتزع القس طرطوره وثوبه وكسر له صليبه المصطنع ، وظل كازيمودو راكعاً وقد أطرق برأسه وشبك أصابع يديه ، ثم جرى بينهما حوار من الإشارات والحركات ولم يتبادلا الكلام ، القس يهدده بسلطة عظيمة والأحدب خانع ذليل بين يديه . وإن كان كازيمودو يستطيع هرس القس بإصبع واحدة .

وأخيراً هزّ القس كتف كازيمودو القوية وأشار إليه أن ينهض ويتبعه ، ونهض كازيمودو .

بعد أن زالت الدهشة عن أخوية المجانين ، حاولوا الدفاع عن البابا الذي أزيح عن عرشه فجأة ، فاندفع الغجر واللصوص والرعاع إلى القس ، فوقف كازيمودو أمامه يمنعهم عنه ، ولوّح بذراعيه الضخمتين في وجوههم وكشر عن أنيابه كالنمر الغاضب .

عاد القس إلى هدوئه ووقاره ، فأشار إلى كازيمودو ، وانسحبا بصمت ، وكازيمودو يشق له طريقه بين الجمهور .

وبعد أن اجتازا الرعاع في الساحة تبعتهما جماعة من أهل الفضول ، فمشى وراءه مواجهاً الجمهور وقد ظهرت عليه علامات الغضب وهو يتلمظ كأنه خنــزير برّي ، مزمجراً كالوحش الكاسر ، مبعداً الناس يميناً وشمالاً . حتى دخلا درباً ضيقاً معتماً لم يجرؤ أحد على ملاحقتهما فيه ، فقال غرينغوار :

– هذا رائع ، ولكن أين يمكنني العشاء ؟

الفصل الخامس

مخاطر التجوال ليلاً

تبع الشاعر غرينغوار الغجرية دون تفكير ورآها تسلك مع عنـــزتها شارع كوتلوي ، فدخله ومشى وراءها فكانت تسرع الخطا وتحث عنـــزتها على الهرولة ، إذ خلا الشارع من المارة وأغلقت الحوانيت ، وفكر الشاعر : " لا بد أنها تقيم في مكان ما ، فالغجريات طيبات القلب " . وازدادت الطرقات إظلاماً وخلت من الناس ، فقد أعلن حظر التجول منذ زمن طويل ولم تعد ترى سوى شخص مسرع أو نور مضاء في النوافذ . ومازال غرينغوار يمشي وراءها في الدروب الضيقة والممرات المعتمة ، وقد لفت إليه انتباه الفتاة ، فكانت تتلفت خائفة ، واستغلت النور الصادر عن أحد المخابز لتقف وتتأمله من رأسه إلى قدميه ، ثم تفتل شفتيها باشمئزاز .

بدأ غرينغوار يضائل شخصه ويتبعها عن بعد حتى اختفت في أحد المنعطفات ، فسمع صرخة شقت السكون فأسرع الخطا ، كان الطريق غارقاً في الظلمة ، ولكن قطعة كتان مغمسة بالزيت كانت تحترق داخل برميل تحت قدميْ تمثال العذراء ، أتاحتْ له أن يرى الغجرية وهي تتلوى بين أيدي رجلين يحاولان إسكات صرخاتها ، وأما العنـــزة الصغيرة فقد فزعت لهذا المشهد ، فخفضت قرنيها ورفعت صوتها بالثغاء ، وصرخ غرينغوار وهو يندفع باستبسال :

– إليَّ أيها الجبناء !

والتفت إليه أحد الرجلين فإذا هو كازيمودو ، فلم يهرب غرينغوار ولكنه لم يتقدم خطوة أيضاً . وجاء إليه كازيمودو وصفعه صفعة رمته على بعد أربع خطوات فوق الرصيف وولى هارباً وقد حمل الفتاة على ذراعه كما يُحمل منديل من حرير . ولحق به صاحبه ووراءهما العنـــزة تجري وهي تثغو شاكية ، وصرخت الغجرية : القاتل .. القاتل !



فارتفع فجأة صوت كالرعد يقول :

– قف أيها النذل .. واترك الفتاة !

واندفع فارس من تقاطع الطرق ، كان ضابطاً من فرقة الحرس الملكي يهزّ سيفه ، وانتزع الغجرية من يدي كازيمودو وألقاها على حصانه ، وحين أفاق الأحدب من دهشته هجم عليه ليسترد فريسته ، فاعترض طريقه خمسة عشر جندياً كانوا يرافقون الضابط ، وقد سلوا سيوفهم فأحاطوا به وقيدوه ، فكان يصرخ ويرغو الزبد من فمه ويعض ، ولو كان الوقت نهاراً ورأوا وجهه الذي زاد الغضبُ من قبحه

لهربت الفرقة ، ولكن الليل جرّده من أقوى أسلحته ألا هو بشاعته ، وهرب صاحبه أثناء الشجار .

اعتدلت الغجرية فوق الحصان ونظرت في عيني الفارس وسألته :

– ما اسمك يا سيدي الفارس ؟

– الضابط فوبوس في خدمتك يا حسناء .

وجعل يفتل شاربيه وقد شمخ بأنفه كبرياء .

– شكراً لك يا سيدي .

وانزلقت عن سرج الحصان وهربت . أما غرينغوار الذي حطمته السقطة فقد ظل مرمياً ، وأحس بجانبه الذي يلامس الأرض بارداً ، فعادت إليه ذاكرته وقال فجأة :

– من أين تأتي هذه الرطوبة ؟

فوجد نفسه وسط ساقية ، وحاول أن ينهض فلم يقدر على الحركة ، فزمجر من بين أسنانه :

– أيها الأحدب اللعين !

ولبث في مكانه وجعل يستعيد المشهد الذي حدث أمامه . فتذكر أن الغجرية كانت تدافع عن نفسها بين رجلين ، أحدهما كازيمودو ، وثانيهما رئيس الأساقفة الذي أشيع عنه أنه قد باع روحه للشيطان ، فلماذا يطارد زملاءه من السحرة ؟ فهل تحول هذا المنافق عن طريقه الأول ؟ ومازال محلقاً في تأملاته الفلسفية حتى أعادته إلى الأرض برودة الواقع فهتف :

– آه .. إني أتجمد .

ولكن برزت أمامه مشكلة أخرى ، فقد جرت نحوه جماعة من الأولاد المشردين العراة شبه المتوحشين وهم يصرخون بأعلى أصواتهم . ويسحبون وراءهم كيساً مملوءاً بشيء ما وينادون :

– أوستاش موبون ، الحداد الملعون ، أخذه إليه إبليسه فلنحرق كيسه .

ورموا الحصير فوق غرينغوار الذي كان غافلاً عنهم ، ثم أخذ أحدهم قبضة من التبن وأشعلها بالنار المتوقدة تحت السيدة العذراء وأحرق بها الحصير .

وقع غرينغوار بين النار والماء ، فبذل جهداً جباراً لينهض ويرمي الحصير على الأولاد ويهرب ، وهتف الأولاد :

– يا سيدتنا العذراء ، هاهو الحداد قد جاء . وتفرقوا في كل مكان .

الفصل السادس

الجرة المكسورة

بعد أن ركض غرينغوار مدة من الزمن دون أن يعرف أين تسوقه قدماه ، حاول أن يتوجه إلى ناحية معينة ، فلم يجد في طريقه سوى مجموعة من البيوت لا منافذ لها غارقة في الأوحال وكأنما هي كوابيس متتابعة ، ولمح فجأة نوراً محمر الوهج ، فانعطف إلى شارع طويل منحدر لا رصيف له ، في نهايته هذا النور يدعوه إليه كأنه منارة ميناء ، ولاحظ أنه لم يكن وحده المتوجه إليه ، فقد كانت ترافقه أشباح أشخاص يجرّون خطاهم أو يزحفون .

ولم يكن شاعرنا يخاف على محفظة نقوده فتابع طريقه مع هذه اليرقات التي تحيط به وتسعى معه ، وكلما أوغل فيه تزايد من حوله عدد العور والعميان والبُرص يفأفئون ويحشرجون ، ووجهتهم ذلك النور ، مثلما تخرج البزّاقات

بعد المطر ، وخطر له أن يعود أدراجه ، ولكن فات الأوان ، فقد أغلق هذا الموكبُ الرهيب طريقَ العودة وراءه وأحاط به من كل جانب ، ووصل أخيراً إلى نهاية الطريق ، فإذا هو يفضي إلى ساحة واسعة تخترق ضبابَه آلاف الأضواء ، فدخلها .. إنها (ساحة الأعاجيب) التي لا يدخلها رجل محترم في مثل هذه الساعة من الليل ، وقد تجمع فيها كل المتسولين والمتظاهرين بالعجز والمتعامين وكل الذين صبغوا أجسادهم بدمامل لا بُرء منها ، وكل اللصوص وقطاع الطرق والقتلة من كافة الأصناف والأجناس ، كل هؤلاء تجمعوا في حفرة القاذورات هذه .. والساحة الواسعة محاطة بالأضواء غاصة بالكائنات الغريبة التي تتحرك هنا وهناك .

كان خوف غرينغوار يتزايد شيئاً فشيئاً . وسمع فجأةً صوتاً يرتفع من وسط الضجيج صارخاً :

– خذوه إلى الملك .. خذوه إلى الملك !

وقبضوا عليه واجتازوا به الساحة ، وتوقف حرسه ذوو الأسمال أمام نار مشتعلة على مصطبة مرتفعة وقد نصب فوقها برميل وجلس فوقه شحاذ ، وسأله من فوق عرشه :

– من هذا الحقير ؟

وفأفأ غرينغوار :

– يا معلم .. يا سيدي .. كيف يجب أن أدعوك ؟

– نادني يا مولاي .. أو يا صاحب الجلالة .. أو أيها الرفيق ، أو كما تشاء ، ولكن بسرعة .. ما اسمك يا حقير ؟ إنك الآن أمام ثلاثة ملوك : أنا وملك تاونس وماتياس سبيكالي ملك مصر وبوهيميا ، ونحن قضاتك ، لقد تسللت إلى مملكة الحرافيش دون أن تكون حرفوشاً ، واخترقت حدود مدينتنا ، وينبغي أن تنال جزاءك ، إلا إذا كنت سارقاً أو شحاذاً أو متشرداً ، فهل أنت واحد من هؤلاء ؟ قال غرينغوار :

– وا أسفاه ! لم أحصل على هذا الشرف .. لأنني كاتب ..

فقاطعه :

– كفى .. ستشنق !

فقال غرينغوار بصوت هادئ دهش له هو نفسه :

– يا حضرات الأباطرة ، ويا أصحاب الجلالة .. اسمي بيير غرانغوار ، وأنا الشاعر الذي مُثّلت له هذا الصباح مسرحية أخلاقية في قاعة القصر الكبرى . فقال كلوبان :

– هذا أنت يا أستاذ ؟ لقد شاهدتها .. وهل تعتقد أنك إن أسأمتنا صباحاً ، فلن تشنق في المساء ؟

طلب منهم غرينغوار أن ينتسب إلى جماعتهم . فتداول الملوك الثلاثة فيما بينهم ، وقرروا أن يجتاز امتحان القبول ، إذ ينبغي للمترشح لمملكة الحرافيش أن يفتش جيوب تمثال معلقة عليه الأجراس دون أن يحركها ويرتفع رنينها . وقال لهم ناظم القوافي إنه جاهز لخوض الامتحان ، فأحضر التمثال

وقد عُلّق على مشنقة ، وحين توقف عن الحركة أشار الملك إلى سلم قصير مكسور الدرجات لا يكاد يتوازن ، وأمره أن يصعده ، ثم شرح له ما يجب عمله :

– ستقف على رؤوس أصابع قدمك اليسرى وتدور باليمنى حول التمثال ، وتستل محفظته من جيبه ، فإذا فعلت هذا كله دون أن نسمع صوت الأجراس أصبحت واحداً منا ، ثم ننهال عليك ضرباً تسعة أيام .

– وإذا تحركت الأجراس ؟

– تشنق .. وإذا سمعنا أقل حركة تأخذ مكان التمثال .. هيا .. أسرع !

لم يكن غرينغوار يأمل في الحصول على إعادة المحاكمة أو تأجيلها ، فوقف على السلم وأدار رجله اليمنى على رجله اليسرى ، ومد ذراعه ليمسك بالتمثال ، فتزعزع السلم ، وحاول أن يتمسك بشيء ما لئلا يهوي فلم يستطع وسقط على الأرض وقد رنت الأجراس كلها معاً . فأمره الملك :

– انهض أيها الغبي .. اشنقوه فوراً !

ووضعت الأنشوطة حول عنقه ، وقبل أن يصفق الملك إعلاناً عن بدء التنفيذ ، قال :

– لحظة ! لقد نسيت أنه من تقاليدنا قبل شنق الرجل أن نسأل عما إذا كانت هناك امرأة تريده . وهتف الإمبراطور :

– هل هناك امرأة تريده ؟ .. اشنقوه !

ولكنّ صرخة ارتفعت من بين الحرافيش :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

وأفسحوا لها ممراً بينهم .. إنها الغجرية .

والظاهر أن لجمالها تأثيراً خاصاً في محكمة العجائب ، وسألت الإمبراطور بصوت هادئ :

– هل ستشنق هذا الرجل ؟

– طبعا .. يا أختي . إلا إذا اتخذته زوجاً لك .

فحركت شفتيها كما اعتادت وقالت :

– أتخذه زوجاً لي .

حتى الآن كان يظن غرينغوار نفسه فريسة حلم عجيب ، وفكوا الأنشوطة من عنقه وأنزلوه عن السلم وأجبروه على الجلوس ، وحمل ملك مصر جرة من الفخار دون أن ينطق بكلمة وقدمها إلى غرينغوار .



فقالت له :

– ارمها على الأرض .

فرماها ، وتقدم ملك مصر يتفحصها فوجد أربع قطع ، فقال له :

– يا أخي إنها زوجتك الآن .. يا أختي إنه زوجك الآن ، لقد تم تزويجكما لمدة أربع سنوات .. انصرفا .

الفصل السابع

المطعم والمأوى

حين وجد الشاعر نفسه داخل غرفة مقوسة السقف محكمة الإغلاق دافئة ، وأمامه طاولة عامرة بما لذّ وطاب من المأكل ، ومعه هذه الفتاة الجميلة ، حسب نفسه بطل إحدى الحكايات الخرافية ، أما هي فلم تعره اهتماماً ، فكانت تروح في الغرفة وتجيء وهي تكلم عنـــزتها ، فسألها بعد دقائق :

– لماذا اتخذتني لك زوجاً ؟

فأجابته ببساطة :

– وهل أدعهم يشنقونك ؟

فانزعج لجوابها وقال :

– لم يكن هدفك سوى إنقاذي من الإعدام .

– وأي هدف آخر تظنه يدفعني إلى ذلك ؟ إن دافعي الوحيد هو طيبة قلبي لا حبّي لك ..

فقال :

– ولكني حسبتُ أنك .. المهم .. أن عطفك عليّ يعوضني عن حبك لي ، وأعاهدك على ألا أخالف لك أمراً .. ولكن ..

وضحكت ضحكة عالية وهي تسمعه يكمل عبارته :

– ولكن أعطيني العشاء .

بعد قليل كان على الطاولة قطعة خبز وشريحة لحم وتفاحة ذابلة ، فبدأ غرينغوار يأكل بشراهة .

جلست الفتاة أمامه تنظر إليه ساكنة وقد انشغلت بفكرة أخرى ، كانت تدفع الابتسامة إلى شفتيها من حين إلى آخر وهي تمسّد رأس عنـــزتها الذكية التي التصقت بها ، وكان يضيء هذا المشهد من النهم والحلم شمعدان فيه شموع صفراء ، وساءل غرينغوار نفسه بعد أن ملأ معدته : بماذا .. أو بمن تفكر ؟



ثم سألها :

– ماذا تريديني أن أفعل لأرضيك ؟

– يجب أن تكون رجلاً .

– فماذا ترين أمامك إذن ؟

– أريدك أن تكون رجلاً يلبس خوذة في رأسه ويمسك سيفاً بيده ، ومهمازين من ذهب في عقبيه ، فقال غرينغوار :

– كيف أكون رجلاً وليس لدّي حصان ؟

– لا أمنح حبي لرجل لا يستطيع حمايتي . فاحمرّ غرينغوار إذ أنها تشير إلى الحادثة التي جرت قبل ساعتين ، وسألها :

– وكيف استطعت التخلص من براثن كازيمودو ؟

فارتعدت الفتاة :

– ذلك الأحدب المخيف ؟

– كيف أفلتّ من يديه ؟

فابتسمت الإسميرالدة وظلت ساكتة .

وسألها :

– هل تعرفين سبب ملاحقته لك ؟

– لا أدري .. ولكن لماذا كنت تلاحقني أنت ؟

– الحق أقول لك ، إني لا أدري .

وقص عليها تفاصيل حياته المضطربة وكيف عاش طفولة بائسة في شوارع باريس ، وحين بلغ سن الشباب ابتسم له الحظ فصادف كلود فرولو رئيس أساقفة نوتردام ،

وبمساعدته تعلم اللاتينية والفلسفة ، وكان يبدو على الفتاة أنها تصغي إليه ولكنها قاطعته فجأة :

– فوبوس .. ما معنى هذه الكلمة ؟

– هذه كلمة لاتينية معناها الشمس .

ورددت كلمة " الشمس " وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة ، ثم سألها غرينغوار عن معنى اسمها ، فقالت له إنه كلمة غجرية ولا تعرف أكثر من ذلك ، وسألها :

– هذا الرجل الذي زوّجنا وتدعونه ملك مصر .. هل هو زعيم القبيلة ؟

– نعم .

– كم كان عمرك حين جئت إلى فرنسا ؟

– صغيرة جداً .

– وإلى باريس ؟

– السنة الماضية .

– وهل لك أهل ؟

فلم تجبه ، ولكن غرينغوار يحترق شوقاً لسؤالها :

– هذا المساء حينما هاجمك كازيمودو ، ألم تلاحظي معه شخصاً آخر قد هرب حين جاء الحرس ؟

فارتعدت الإسميرالدة وقالت :

– أظن ذلك ..

– ألم تعرفيه ؟

– أظنني عرفته .

– ألا يشبه كلود فرولو رئيس الأساقفة الذي حدثتك عنه ؟

وازداد خوفها وهي تقول :

– ربما .. وإني متأكدة أنه يكرهني ويظنني ساحرة ، آه .. أفضل أن أقابل الشيطان ولا أقع في يده .

بعد فترة من الصمت سمعها تتمتم : " فوبوس "

فقال لنفسه : لا ريب أنها تردد تعويذة سحرية .

وعادت إلى أحلامها ، ووجد أنه لن يعرف المزيد عن هذه المخلوقة الغريبة ، ففضل الانصراف إلى النوم ، وأما هي فلم تتمن له ليله سعيدة ودخلت الغرفة مع عنـــزها وأحكمت إغلاقها . قال الفيلسوف :

– هل تركتْ لي سريراً ؟

وفتش الحجرة فلم يجد سوى صندوق طويل من الخشب غطاؤه محفورة عليه النقوش .

الفصل الثامن

نوتردام

منذ ست عشرة سنة على هذه الأحداث جاءت امرأة مجهولة إلى كنيسة نوتردام يوم الأحد ، ووضعت بيدها اليسرى طفلاً صغيراً على غطاء الصندوق الخشبي المنقوش ، وهذا الصندوق مخصص للأطفال اللقطاء لكي يتبناهم من يشاء ، وكان المخلوق الذي وضعته المرأة على الصندوق سنة 1467 عجيب الخلقة قد تجمعت حوله حلقة من الناس يتفرجون عليه ، وكأنما أخافته نظراتهم فارتفع صوته بالبكاء ، وأخرج رأسه من الكيس الملتف به ، ولم يكن رضيعاً وإنما قدّر عمره حينئذ بأربع سنوات ، ولا تستطيع أن تتخيل مخلوقاً أكثر بشاعة منه ، فليس له سوى عين واحدة والأخرى مغطاة بجفنيه ، وأما فمه وأسنانه فكانت بارزة مستعدة للنهش ، وغابة من الشعر تغطي رأس هذا الساحر

كما سمعته النساء اللواتي رأينه ، وحسبنه ينظر إليهن بعين شيطان ، واقترحن أن يرمى إلى النار . حينئذٍ تقدم قس شاب فأبعد الحلقة من النساء المتجمعات حوله ونظر إلى هذا " الساحر " الصغير ، ووضع يده فوقه وقال :

– سأتبنّى هذا الصغير .

وحمله داخل ملابسه الكهنوتية ومضى ، وما إن أفقن من دهشتهن حتى مالت إحداهن على أذن جارتها وقالت لها :

– لقد قلت لك دائماً إن هذا القس الشاب كلود فرولو يمارس السحر ، ولم يكن فرولو شخصية متبذلة ، فقد وهبه والده إلى الكنيسة ، فصرف اهتمامه إلى الدراسة الجادة وكأنما أصابته حمى العلم ، وأمضى أربع سنوات في الجامعة ، ولا هدف له في الحياة سوى : المعرفة ، لكن الطاعون الأكبر الذي اجتاح البلاد سنة **1466** أودى بحياة أمه وأبيه في يوم واحد ولم يترك له سوى أخيه الرضيع ، فانصرف عن حياة الفكر إلى العطف على أخيه ورعايته والاهتمام به ، ولفتت

انتباهه يوم الأحد هذه الحلقة من النساء اللواتي أحطن بالطفل اللقيط ، وتخيل أن مصير أخيه قد يكون مثله لولا أنه يعيله ، فعطف عليه وتبناه ، وأطلق عليه اسم كازيمودو أي " الناقص " لأنه كان أعور أحدب معوجّ الساقين .

في سنة **1482** كان كازيمودو قد كبُر ، وعُيّن منذ سنوات قارعاً لنواقيس كنيسة نوتردام بمساعي أبيه بالتبني كلود فرولو الذي وصل إلى منصب رئيس الأساقفة ، وبمرور الزمن جمعت علاقة وثيقة بين قارع النواقيس وبين الكنيسة ، إذ كانت نوتردام المهد الذي فيه تربّى ، فهي عشّه وبيته ووطنه والكون كله . وحينما تعلق لأول مرة بحبال النواقيس وارتفعت أصواتها كان هذا بالنسبة إلى كلود أولى الكلمات التي نطق بها كازيمودو ، ولكن المصائب لا تأتي فرادى ، ولم يكفه أن يكون أعور أحدب ، إذ فقد سمعه من قرع النواقيس ، ونتج عن صممه صعوبة في النطق ، ولئلا يسخر منه الناس عزم على ألا يتكلم إلا إذا كان وحيداً ، ولذلك

انعقد لسانه ، فإن تحدث إلى الناس لم يُفصح ولم يفهموا ما يقول ، يضاف إلى هذا حبه للشر ، فقد غدا شريراً لأنه متوحد ، وكان متوحداً لأنه قبيح الخلقة ، وابتعد عن الناس ، فلم تعد الكاتدرائية مجتمعه فحسب بل الطبيعة كلها بألواح نوافذها المزينة برسوم الأزهار والنباتات والعصافير ، وقمم أبراجها التي يصعد إليها دون أن يحس بالدوار ، فيتأمل باريس وكأنها بحر هائج تحت قدميه ، لقد كان أحب شيء إلى قلبه في هذا الصرح الأليف نواقيسه الخمسة عشر ، على الرغم من إصابته بالصمم ، وكان أحبها إليه الناقوس الكبير الذي يعتبره امرأة يدعوها ماري إلى جانبها أختها جاكلين ، وأما من بين البشر فكان يخلص حبه لشخص واحد ، ولعله يفضله على الكاتدرائية ، إنه كلود فرولو ، وذلك لسبب بسيط ، إذ أن كلود فرولو هو الذي كفله وأطعمه ورباه ، وكان يلجأ إليه حينما يهاجمه الأطفال وتنبحه الكلاب وتجري وراءه ، وهو الذي علمه القراءة والكتابة ودرّبه على قرع

النواقيس . وهكذا ظل كازيمودو على اتصال بكائنين في هذا العالم : كنيسة نوتردام والقس كلود فرولو .

سنة **1482** ، كان عمر كازيمودو حوالي العشرين ، وكلود فرولو حوالي السادسة والثلاثين . الأول ينمو ويترعرع والآخر يشيخ ويفقد قواه ، ولم يعد كلود فرولو ذلك التلميذ البسيط في معهد (تورشي) والمدافع الساذج عن طفل صغير ، لقد غدا قساً صارماً وقوراً كئيباً مسؤولاً عن أرواح الناس ، وأول نائب للمطران ، وشخصية هامة تشيع الجزع من حولها ، ولكنه لم يتخل في مسيرة حياته عن أمرين : العلم وتربية أخيه الصغير ، وقد خاب رجاؤه في أخيه يوهان فرولو الذي لم يتبع الطريق الذي رسمه له ، إذ أمّل أن يراه تلميذاً تقياً وديعاً مثابراً حسن السيرة ، ولكن تبين له أن يوهان شيطان رجيم يحب الفوضى ومعاشرة الرعاع ، وكم كان يلقي عليه الخطب الطويلة والمواعظ البليغة فيبدو على يوهان أنه متأثر بها ، ويُظهر ميله إلى

التوبة ، ولكن ما إن تنتهي تلك الخطبة أو الموعظة حتى يعود إلى ما كان عليه من الفوضى والفساد .

وحين بلغ السادسة عشرة أعلن كلود عجزه عن تقويم أخيه الذي لا طاقة له بمقاومة الشر ، ولكي يدفن أحزانه وخيبة آماله انصرف كلود إلى كتب العلوم ينهل من معينها ، فأصبح قساً متعصباً ورجلاً شديد الكآبة ، ويقال إنه كان يتردد على المجتمعات السرية بكل أنواعها ، وخاصة تلك التي تشتغل بالسحر والعلوم المستورة ، ولعله جازف بفقدان روحه لديها . والثابت أن لرئيس الأساقفة حُجرة صغيرة قائمة بين البُرجين المطلين على ساحة كريف من كنيسة نوتردام يحظر على أي إنسان دخولها ، ولا يمكن التأكيد على أنه يمارس السحر ، ولكن لا دخان بلا نار كما يقال ، إذ كانت لرئيس الأساقفة سمعة شائعة في هذا الميدان . والعجيب أنه أكبر أعداء العلوم السرية المتعلقة بالسحر بنوعيه : الضار والنافع ، فهل كان هذا ستاراً يختفي وراءه لكي يلفت

الأنظار عن حقيقة أمره ؟ ومع مرور السنين أصبح قاسياً على نفسه وعلى الآخرين لا يتسامح مع أي كائن له صلة بالسحر من قريب أو بعيد وهو العدو الأكبر للغجر حيثما وجدوا .

وقد استطاع كلود فرولو أن يستصدر من الأسقف قراراً بمنعهم من ممارسة طقوسهم ، واستعراض فنونهم من رقص وغناء في الساحات العامة ، كما استطاع أن يستصدر أمراً آخر بإحراقهم إذا ثبت عليهم ممارسة السحر .

الفصل التاسع

كازيمودو أمام القضاة

من صباح اليوم التالي على الاحتفال بانتخاب (بابا المجانين) اجتمع جمهور غفير من الناس في قاعة (غوان شاتليه) ليشهدوا المحاكمة التي يترأسها القاضي فلوريان بابرديق ، وكان في الصف الأول من الحاضرين يوهان فرولو ، وهو التلميذ الذي تراه في كل مكان من باريس يصفق أو يهتف أو يمازح أصحابه أثناء انتخاب (بابا المجانين) ، فلكز صاحبه بمرفقه وقال له :

– من سيحاكمون الآن ؟ ها قد جاء الجنود .

ثم وقف على رؤوس أصابع قدميه ليرى جيداً ، وقال :

– آه .. ما أجمل هذه المحاكمة .. إنه (بابا المجانين) الذي انتخب بالأمس قارع النواقيس الأعور الأحدب .

ودخل كازيمودو مربوطاً بالحبال وقد شددت عليه الحراسة . وكان كئيباً صامتاً هادئاً . ومن حين إلى آخر يلقي بعينه نظرة غضب إلى تلك الحبال التي أوثق بها ، أما القاضي فلوريان فكان يقلب أوراق ملف الاتهام الذي أعده كاتب المحكمة ويتأملها ، وبذلك يتمكن من الاطلاع على كل تفاصيل القضية ، ويعرف اسم المتهم وحالته المدنية دون أن يعرف أحد أنه أصم لا يسمع شيئاً ، وكان عازماً على تسيير الدعوى ضد كازيمودو بهذه الطريقة ، فرفع رأسه عن الأوراق وانحنى إلى الوراء وأسبل جفنيه وبدأ الاستجواب بهذه الوضعية المهيبة :

– ما اسمك ؟

ولم ينتبه إلى حالة كازيمودو أحد ، إذ كان أشد صمماً من القاضي فجعل ينظر إليه نظرات ثابتة ولا يجيب ، ولم ينتبه القاضي أيضاً إلى صمم المتهم ، فظن أنه أجاب مثلما يفعل المتهمون جميعاً .

فتابع استجوابه بطريقة آلية غبية :

– حسناً .. كم عمرك ؟

ولم يجبه كازيمودو عن هذا السؤال أيضاً فتابع القاضي :

– حسناً .. والآن إلى الحالة المدنية .

وخيم السكون ذاته ، وبدأ الحاضرون يتهامسون وينظر بعضهم إلى بعض ، وتابع القاضي قائلاً :

– نكتفي بهذا القدر من الأسئلة ، أنت متهم أمامنا بما يلي :

أولاً بإقلاق الراحة ، ثانياً بمحاولة الاعتداء على امرأة مجنونة ، ثالثاً بعصيان رجال الدولة ومنعهم من ممارسة مهماتهم الموكلة إليهم . ما دفاعك أمام هذه الاتهامات ؟ أيها الكاتب هل دونت دفاع المتهم ؟

وجاء جواب هذا السؤال ضحك الجمهور وقهقهاتهم ، وبلغ من حدة أصواتهم أن ينتبه إليها الأصمّان : المتهم

والقاضي ، فالتفت إليهم كازيمودو مستخفاً بهم ، وزجر القاضي فلوريان المتهم قائلاً :

– هل تُضحك الناس بأجوبتك .. أتعرف ما جزاؤك ؟ ومن يكلمك ؟

فلم يعد أحد يتمالك نفسه من الضحك سوى كازيمودو الذي ظل جامد القسمات ، لأنه لا يفهم شيئاً مما يدور حوله .

وحاول القاضي أن يفزع المتهم ، وتنقل عدوى فزعه إلى الحاضرين ، فصرخ فيه :

– أنت أيها الشيطان الذي تمنع القاضي من ممارسة مهماته ، والشرطة من القيام بواجبها ، والله لأجعلنك عبرة لمن يعتبر .

وكان من الممكن أن يستمر في خطبته البليغة هذه ساعات لولا أن فُتح الباب الصغير المؤدي إلى غرفة الاجتماعات ، ودخل منه رئيس القضاة نفسه ، وكان قد

استيقظ متعكر المزاج ، ووصل إلى الجلسة متأخراً ، فسأل المتهم بصوت شرس : ماذا فعلت أيها المجرم حتى جيء بك إلى هنا ؟



وظن المسكين أنه يسأله عن اسمه ، فقطع سكون القاعة بصوته الأجش :

– كازيمودو .

وتعالت أصوات الضحك مرة ثانية ، أما رئيس القضاة روبير فقد احمر وجهه غضباً وصاح :

– أتسخرمني أيها الوغد ؟

فأجابه كازيمودو وقد ظن أنه يسأله عن مهنته :

– قارع النواقيس في كاتدرائية نوتردام .

فقال رئيس القضاة خانقاً :

– قارع النواقيس ؟ لقد حانت ساعة دق ناقوسك وسوف تسمعه باريس كلها .. أتسمع أيها البليد ؟

فقال كازيمودو : تريد أن تعرف عمري ؟ سأبلغ العشرين في عيد القديس سان مارتان .

– آه .. أتهزأ بهيئة القضاة أيها البائس ؟ أيها الضابط .. خذ هذا المتهم واضربه بالسياط في ساحة كريف وأعده إليّ بعد ساعة !

واستمر الكاتب في تسجيل خلاصة الحكم إذ كانت بسيطة موجزة .

الفصل العاشر

ساحة التعذيب

كانت جموع الناس قد تجمهرت في ساحة كريف ، حيث وقف في أنحائها أربعة ضباط شرطة منذ الساعة التاسعة إعلاناً بتنفيذ عقوبة ما ، لعلها لا تكون الشنق بل الجلد بالسياط أو صلم الأذنين أو شيئاً ما شبيهاً بذلك ..

أما منصة التعذيب فكانت مصطبة ارتفاعها عشر أقدام عن الأرض ، في وسطها دولاب يدور على محور من خشب السنديان الصلب يربط إليه المتهم بحيث إذا دار يدور معه وجه المتهم على الحاضرين ، وهذا ما يدعى (تدوير المجرم) .

وصل كازيمودو فأثار عاصفة من التصفير والضحك ، فسوف يعذب على هذه المنصة نفسها التي توج عليها بالأمس (بابا للمجانين) .

ولم يأت بحركة ، إذ كانت القيود والسلاسل تعض في لحمه ، ولا تبدو عليه سوى دهشة المتوحش وغبائه ، وقد عرف أنه أصم ولكنه يظهر كالأعمى أيضاً ، وحين عُرّي من قميصه أثارت حدبة الجمل التي على ظهره ضحك الحاضرين .

وضع المشرفون على التنفيذ ساعة رملية قرب المنصة ، وأمسك الجلاد سوطاً طويلاً له ذوائب بيضاء لامعة تنتهي بمسامير من حديد ، وشمر بيده اليسرى كُمّ يده اليمنى الممسكة بالسوط ، حينئذٍ وقف يوهان فرولو فوق كتفي أحد أصحابه وهتف بأعلى صوته :

– سيداتي ، سادتي .. تعالوا تفرجوا على عقوبة المعلم كازيمودو ، قارع الأجراس في كنيسة أخي ، رئيس الأساقفة . وتدافع الجمهور وخاصة الأطفال والفتيات ، وخبط الجلاد الأرض برجله فبدأ الدولاب بالدوران ، وحاول كازيمودو أن يتخلص من قيوده ، وارتسمت على

وجهه علامات الرعب ، فزادت من بشاعته وضاعفت من ضحك المتفرجين .

وأهوى الجلاد بالضربة الأولى على ظهر كازيمودو ، فصفرت ذؤابات السوط واستقرت على ظهره ، فارتجف لها ألماً ، وكأنه بدأ يدرك ما يحدث له ، فتململ في القيود والحبال ، وتوفزت عضلاته كلها ، ولكنه لم يطلق آهة ألم واحدة ، وهوت عليه ضربة أخرى ، وتبعتها ثانية وثالثة ، والدولاب لا يتوقف عن الدوران ، والضربات تنهال عليه كزخات المطر ، وتفجر الدم من ظهره ، وتناثرت قطرات على جسده الأسمر ، وأصاب المتفرجين رذاذها .

همد جسد كازيمودو وأغمض عينه الوحيدة وسقط رأسه على صدره كالمتماوت .

أخيراً ، اقترب كاتب محكمة شاتليه مرتدياً الملابس السوداء وممتطياً حصاناً أسود ، وكان واقفاً في ناحية منذ بداية التنفيذ ، وأشار بعصاه الأبنوسية إلى الساعة الرملية

وتوقف الجلاد وتوقف الدولاب ، وانفتحت عين كازيمودو بهدوء .

تقدم إليه خادما الجلاد فغسلا جروحه ودهناها بمادة لا ندري ما هي ، ورميا عليه قطعة قماش .

لم ينته عذاب كازيمودو بعد ، فقد بقي عليه ساعة من الجلد ، وقلبت الساعة الرملية على طرفها الثاني ، وتُرك الأحدب على دولاب التعذيب ، وتهاطلت عليه الشتائم والإهانات والضحكات والحجارة من هنا وهناك ، وانهالت عليه ضربات السوط ، فكانت تظهر على وجهه القبيح آلامها وتتقلص لها عضلاته ، وفجأة انفرجت الجموع لتفسح الطريق أمام بغلة تحمل قساً ، فتغيرت قسمات وجه كازيمودو ، وحلت محل الألم والرعب ابتسامة غريبة وديعة عامرة بالحنان ، وكلما اقترب القس ازدادت الابتسامة اتساعاً ترحب بالمنقذ الذي سينتشله من العذاب ، وما إن أصبحت البغلة على مقربة من منصة التعذيب حتى لوى

القس زمامها ، وعاد بها راجعاً ، إنه رئيس الأساقفة كلود فرولو .

وعادت الغيمة أشد سواداً على جبين كازيمودو ، وكانت بقايا ابتسامة ما تزال على شفتيه ، ولكنها تحولت إلى ابتسامة ألم ويأس وحزن عميق ، وتمر الدقائق ، إنه منذ ساعة ونصف تقريباً يُضرب بالسياط ويُعذب ويُهان ويُهزأ به ويُرمى بالحجارة .

– الماء .. الماء !

كانت هذه الكلمة التي نطق بها كازيمودو ، تحرك قلب الصخر الجلمود ، ولكنْ وجد فيها الجمهور الباريسي وسيلة للتسلية ، وصدرت عن كازيمودو استغاثة ثانية :

– الماء .. الماء !

فانفجروا لها ضاحكين ، وكررها كازيمودو ثالثة :

– الماء .. الماء !

حينئذٍ خرجت من بين الجموع فتاة ترتدي ثياباً عجيبة ، تصحبها عنــزة بيضاء ذهبية القرنين وهي تحمل طبلة بيدها ، والتمعت عين كازيمودو ، إنها الغجرية التي حاول خطفها الليلة الماضية ، ولم يشكَّ في أنها جاءت لتنتقم منه وتضيف ضربة أخرى إلى ضربات الجلاد .

تقدمت هادئة ، فتحرك كأنه يريد الهرب منها ، ففكت من زنارها مَطَرةً وحملتها بهدوء إلى شفتي كازيمودو المتشققتين . حينئذٍ ، توقرت في عينه الجافة دمعة كبيرة انحدرت بهدوء على وجهه المشوه الذي وقّزه اليأس ، ولعلها أول دمعة يذرفها البائس في حياته كلها ، ونسي أن يشرب ، فظهرت علامات القلق على وجه الفتاة ، وقرّبت فم المَطَرة من شفتي كازيمودو ، فشرب جرعات كبيرة وأطفأ ظمأه ، وحين ارتوى مطّ شفتيه السوداوين لكي يقبل اليد التي أحسنت إليه ، ولكن الفتاة التي لم تنس ليلة البارحة سحبت يدها بحركة الطفل الخائف من عضة حيوان ، فثبّت عليها

الأصم البائس نظرةً حافلة بالعتاب والأسى اللذين لا يمكن وصفهما ، وكان مشهداً مؤثراً ، مشهد تلك الفتاة الجميلة النضرة والضعيفة في آن واحد ، وهي تهبّ إلى مساعدة هذا المشوّه الشرير ، كان على منصة التعذيب مشهد رائع لا يُنسى . وجعل الناس يحيونها وهي تصفق بيدها وتهتف : نويل ، نويل .

الفصل الحادي عشر

زيارة الغجرية

لقد انقضت عدة أسابيع على الأحداث التي روينا تفاصيلها ، وكان الوقت أوائل شهر آذار ، والأيام الأولى للربيع بوقته وسحره ، حتى إن باريس كلها قد انتشرت في الساحات والمنتزهات ، وكأنها في عطلة يوم الأحد .

في هذه الأيام التي يصحو فيها الطقس ، وتضيء الشمس بنورها ، ينبغي التفرج على كاتدرائية نوتردام وقت الغروب ، إذ ترسل الشمس أشعتها على واجهة الكاتدرائية ، وتبرز نقوشها المحفورة في الحجر الذي يغدو أحمر اللون ، وفي وسطها وردة تشع كأنها عين تنظر إلى ما حولها .

في زاوية من شارع بارفيس يوجد منـــزل مبني على الهندسة القوطية يدل على ثراء ساكنيه ، وقد جلست في

شرفته الواسعة عدة فتيات وهن يتمازحن ويتضاحكن ، وتنفتح هذه الشرفة على قاعة مفروشة بأثاث من الجلد تزينه شرائط مذهبة ، وبجانب المدفأة جلست سيدة المنـــزل ، وتدعى مدام ألويزدي غوندليه ، ووقف بقربها شاب يرتدي الثياب الزاهية لضابط في الحرس الملكي ، ومن حين إلى آخر توجه إليه السيدة العجوز بعض الكلمات بكثير من الملاطفة المصطنعة ، وتستطيع أن تدرك من غمزها إلى ابنتها فلورديلي والكلمات الهامسة التي تتبادلها معها ، أن الأمر يدور حول خطبة بين الآنسة والضابط ، كما تستطيع أن تلمح من البرودة التي يتحدث بها الضابط أنه ليس في الأمر قضية حب ، ولكن السيدة في غمرة إعجابها بابنتها لم تلحظ البرودة التي يواجهها بها الضابط ، وهي تعدد له محاسنها قائلة :

– هل رأيت يا بن عمي ، أبهى من هذا الوجه الضحوك ؟ أو رأيت يدين أرشق أو أشد بياضاً من يديها ؟

أليس عنقها هذا عنق البجعة ؟ أليست ابنتي فلورديلي جديرة بالإعجاب ؟

فيجيبها وهو يفكر بشيء آخر :

– لا ريب في ذلك .

فتدفعه السيدة ألويز دفعة خفيفة في كتفه ، وتقول له :

– كلّمها .. قل لها شيئاً .. إنك خجول حقاً .

في تلك اللحظة تدخل بيرانجير وهي طفلة في السابعة ، وتنادي بعد أن تأملت الشارع :

– انظري يا سيدتي إلى تلك الفتاة الجميلة التي تؤدي رقصاتها في الشارع أمام الناس وتدق الطبلة بيدها !



وتصاعدت من الشارع أصوات الطبلة التي تدق عليها الفتاة .

نظرت فلورديلي إلى الساحة بلا مبالاة ، وقالت :

– إنهم بعض الغجر .

وهتفت صاحباتها ، وجرين نحو الشرفة :

– هيا نتفرج .. هيا نتفرج !

وكان الشاب متكئاً على إفريز المدفأة ، ولا ندري فيم كان يفكر ، فالتفتت إليه فلورديلي فجأة وقالت له :

– ألم تحدثنا يا بن العم عن فتاة غجرية أنقذتها في إحدى دورياتك الليلية منذ شهرين من أيدي عشرة من اللصوص ؟

فقال الضابط :

– نعم ، أعتقد ذلك يا بنت العم .

– لعلها هذه الغجرية التي ترقص في الشارع ، تعال وانظر إليها ، ربما تتعرف إليها يا بن عمي فوبوس !

فتوجه الضابط فوبوس بخطوات متثاقلة نحو الشرفة .

قالت له فلورديلي :

– انظر .. إنها تلك الصغيرة التي ترقص داخل الحلقة ، هل هي الغجرية التي أنقذتها ؟

– نعم عرفتها ، لأن معها عنـــزتها .

فقالت إحدى صاحبات فلورديلي :

– آه .. ما أجمل هذه العنـــزة الصغيرة ؟

وسألت بيرانجير :

– وهل قرناها من ذهب حقيقي ؟

وهتفت الفتاة التي تحت الإسميرالدة أولاً ، وأشارت إلى الكاتدرائية :

– يا عمتي .. من هذا الرجل الأسود الذي في قمة برج نوتردام ؟

ورفعت البنات عيونهن إلى أعلى ، كان في قمة البرج المطل على الساحة رجل يتكئ على مرفقيه ، إنه القس وقد بدت بوضوح بذلته ووجهه بين كفيه ، وكان جامداً كالتمثال يراقب الساحة . قالت فلورديلي :

– إنه رئيس الأساقفة .

ثم التفتت إلى الضابط :

– يا بن عمي فوبوس ، ما دمت تعرف الغجرية فلم لا تدعوها للصعود إلينا لنتسلى معها ؟

وهتفت البنات وهن يصفقن بأيديهن :

– نعم .. نعم .. نادها !

فأجاب فوبوس :

– ولكن هذا جنون .. لا ريب أنها نسيتني ، ولكن إذا كانت هذه رغبتكن فسوف أناديها .

وانحنى على الشرفة ، ونادى :

– يا صغيرة .. أنتِ هناك !

ولم تكن تدق طبلتها هذه اللحظة ، فرفعت وجهها ناحية الصوت ، وتركزت عيناها على فوبوس فوقفت جامدة ، وعاود الضابط نداءه :

– يا صغيرة !

وأشار إليها بإصبعه أن تأتي ، فتأملته الفتاة لحظة وقد احمرّ وجهها ، وجعلت الطبلة تحت إبطها وتوجهت بخطوات

بطيئة نحو الدار التي ناداها منها فوبوس ، وكأنها عصفور أذهله ثعبان .

بعد لحظات انفتح الباب ، وظهرت الغجرية مترددة لاهثة وعيناها الواسعتان تنظران إلى الأرض ، ولم تتقدم خطوة أخرى ، كان لظهورها تأثير خاص على الفتيات ، والمؤكد أن رغبة غامضة في إرضاء الضابط قد اجتاحتهن جميعاً ، وأن البذلة البراقة هي هدف حركاتهن المتكلفة ، وأن نوعاً من التنافس قد نشأ بينهن منذ حضر الضابط إلى القاعة ، وبما أنهن على مستوى واحد من الجمال ، فقد دخلن المعركة بأسلحة متكافئة أملاً في النصر ، وحين دخلت الغجرية اختل هذا التوازن ، إذ كانت على قدر من الجمال بحيث شع في القاعة نور غريب منذ وطئت القاعة قدماها ، وكأنك رفعت مشعلاً باهراً في ظلام الليل ، وقد أعشت عيون البنات رغماً عنهن ، وشعرن كأن عدوة لهن دخلت

المعركة ، فتحالفن ضدها جميعاً ، واستقبلن الغجرية ببرودة شديدة . وقطع الضابط الصمت المخيم عليهن فقال :

– والله إنها مخلوقة فاتنة ، ما رأيك يا بنت عمي الجميلة ؟

فأجابته فلورديلي بصوت خفيض :

– لا بأس بها .

وهامست الفتيات ، وأما السيدة ألويز التي لم تكن أقلهن غيرة منها ، خوفاً على ابنتها ، فخاطبت الراقصة قائلة :

– اقتربي ، يا صغيرة !

وتقدمت الغجرية نحو السيدة النبيلة ، فقال لها الضابط وخطا نحوها خطوات :

– لا أدري أيتها الحسناء ، إن كنت تذكرينني ..

فقاطعته وقد رمته بابتسامة ورفعت إليه نظرة وادعة :

– نعم أذكرك .

فلاحظت فلورديلي :

– ذاكرتها قوية .

واستأنف الضابط كلامه :

– لقد نجوتِ تلك الليلة .. فهل أخفتك ؟

فقالت الغجرية :

– لا .. لم تخفني .

وشعرت فلورديلي بأن غُنّة صوتها عابقة بكثير من المعاني ، وتعاظم هذا الشعور لديها حينما قال الضابط :

– والله إنها فتاة فاتنة .

وقالت إحدى الفتيات واسمها ديان :

– ولكن ملابسها غريبة .

وأضافت فتاة أخرى تدعى أميلوت :

– وأين تعلمت التسكع في الطرقات بلا صدرية ولا ياقة قميص ؟

وسارعت الفتيات يسخرن من ثيابها ويلمزنها بكلامهن المهين ، ويرمينها بنظرات السخرية والاستهزاء ، وجعل الضابط يحرك مهمازيه الذهبيين ويقول ضاحكاً :

– لا تهتمي بكلامهن .. ولا ريب أن زيّك غريب لا يجرؤن على ارتدائه .. ولكن جمالك يشفع لك .

فقالت الفتاة الشقراء ، واسمها غايفونتين وقد مدت عنقها كعنق البجعة :

– أرى سيدي الضابط من الحرس الملكي قد اشتعلت فيه النار من عيني الغجرية الجميلتين .

فقال فوبوس :

– ولم لا ؟

وكانت الغجرية قد خفضت بصرها لكلام الفتاة ، فرفعت عينيها عن الأرض وقد أشعّتا بالفرحة ورمقت بها فوبوس ، واستعادت ذاتها في هذه اللحظة . أما السيدة

العجوز التي ترقب هذا المشهد فقد أحست بالإهانة ولم تعرف لذلك سبباً . وصرخت فجأة :

– آه .. يا رب . ما هذا الذي يتحرك بين قدميّ ؟ ما هذا الحيوان القبيح ؟ كانت العنــزة قد وصلت بعد طول بحث عن صاحبتها الغجرية ، وجعلت تحك قرنيها بقطعة القماش التي غطت بها السيدة النبيلة قدميها ، فمالت الغجرية إلى العنــزة واحتضنت رأسها وكأنها تعتذر لها .

وتوجهت ديان وكولومب إلى الغجرية بالحديث :

– لماذا لا تقوم عنــزتك بأعجوبة أمامنا ؟

فقالت الغجرية :

– لا أفهم ما تقصدانه .

– أعجوبة ، سحر ، نوع من الشعوذة .

– لا أفهم .

واستمرت في معانقة العنـــزة والتربيت عليها وهي تردد : " جالي .. جالي " حينئذٍ لمحت فلورديلي كيساً من الجلد المطرز يتدلى من عنق العنـــزة .

فسألت الغجرية :

– ما هذا ؟

فرفعت إليها عينين واسعتين وقالت جادة :

– إنه سر .

وفكرت فلورديلي : " لا بد أن أكشف هذا السر " .

وقالت لها السيدة العجوز :

– إذا لم ترقصي لنا ولم ترقص عنـــزتك فالأحسن أن تنصرفي .

فلم تجبها الغجرية وإنما توجهت إلى الباب ، وكلما دنت منه أبطأت خطواتها ثم التفتت نحو فوبوس والدمع يترقرق في عينيها .

فهتف فوبوس :

– لا تنصرفي هكذا .. عودي وارقصي لنا .. ما اسمك أيتها الحسناء ؟

فقالت له ولم ترفع عينيها عنه :

– الإسميرالدة .

فانفجرت الفتيات بالضحك استهزاء باسمها .

أثناء ذلك كانت الصغيرة بيرانجير قد أغرت العنـــزة بقطعة حلوى ، وجذبتها إلى زاوية القاعة دون أن ينتبهوا إليها ، وسرعان ما انعقدت الصداقة بينهما ، وقطعت الفتاة الفضولية الكيس الصغير من عنق العنـــزة ونثرت محتوياته على الأرض ، كان فيه حروف أبجدية مكتوبة على أوراق متفرقة ، وما إن رأت العنـــزة هذه الحروف حتى جذبت بعضها بهدوء – وكانت هذه أعجوبتها – ورتبتها بنظام خاص فوق الأرض بعد شيء من التردد ، وشبكت بيرانجير أصابعها إعجاباً وهتفت :

– فلورديلي .. انظري ما فعلت العنـــزة !

كانت الحروف المرتبة تشكل كلمة : فوبوس .

وفكرت فلورديلي : " هذا هو سرها " .

وسارع الجميع لهتاف الصغيرة ، ورأت الغجرية تلك الحماقة التي ارتكبتها العنـــزة ، فاصطبغ وجهها بالحمرة ، ثم شحبت وجعلت ترتجف كأنها مذنبة أمام الضابط الذي كان يرمقها بابتسامة رضا ودهشة .

وتهامست الفتيات مذهولات :

– فوبوس .. إنه اسم الضابط .

قالت فلورديلي للغجرية :

– إن لك ذاكرة رائعة .

ثم سقطت مغمى عليها ، وصرخت الأم المذعورة :

– بنتي .. بنتي .. اذهبي أيتها الغجرية إلى الجحيم !

جمعت الإسميرالدة الحروف بسرعة وأشارت إلى جالي وانصرفتا ، على حين كانت البنات والأم يحملن فلورديلي

ويحاولن إنعاشها ، أما الضابط الذي بقي وحيداً فقد تردد لحظات ثم لحق بالغجرية .

الفصل الثاني عشر
قلب رقيق

لئن خرج فوبوس على إثر الغجرية ، فليس لأنه يريد أن يراه الناس بصحبتها ، فالضابط النبيل يرى من المهانة أن يرافق هذه الراقصة في الطرقات ، الغجرية التي تصاحب القتلة واللصوص ، المتهمة بالسحر والشعوذة .

لقد كان حريصاً على سمعته ، ولكنه همس لها دون أن يحرك شفتيه أو يتوقف ، وحدد لها موعداً هذا المساء في مكان لا يخشى أن يراه فيه أحد ممن يحيطون بفلورديلي . ووقفت الإسميرالدة فوراً ، لم تكن تلك الساذجة تعرف ما يخبئه لها القدر ، ولكنها كانت تطمح إلى أن تشق طريقها في هذه المدينة الكبيرة وتتطلع إلى عالم المثال ، العالم المجهول الذي ينتسب إليه فوبوس كما يتطلع المؤمن إلى دخول الجنة .

وكان صفاء هذه الفتاة الصغيرة قد جعل منها فريسة سهلة المنال ، ولو كانت امرأة سواها لرفضت هذا الموعد الذي ضربه لها فوبوس ، ولم تكن الإسميرالدة الساذجة لتظن فيه نوازع الشر ، ولم تكن تأمل أن يعاملها كما يعامل فتاة من طبقته ، وهي على أي حال تتمنى أن تقابله على انفراد ، فقبلت هذا الموعد وكأنه عربون حب .

حينما وصلت إلى الشارع حيث ينتظرها بيير غرينغوار زوجها المزعوم لم تلاحظ ما حدث في غيبتها ، وذلك أن الجمهور قد نفد صبره حين دخلت المنـــزل ، فأراد غرينغوار أن يرفّه عنه بانتظار عودتها ، وكانت لعبته التي تعلمها بالإضافة إلى الفلسفة ونظم الشعر ، هي أن يرفع بأسنانه هرماً من الكراسي المتراكم بعضها فوق بعض وفي أعلاها قطة مربوطة ، وكان شاعرنا قوي الأسنان وقد أراد أن يثبت مقدرته كما أثبتها في نظم القصائد ، فما كاد يرفع هرم الكراسي حتى تهاوى وانطلقت القطة تخمش من يقف في

طريقها ، وانتهز الفوضى العارمة فالتجأ إلى الكنيسة حيث وجد كلود فرولو الذي أشار إليه أن يتبعه .

وجعل القس يتأمل بذلته ذات اللونين الأصفر والأحمر دون أن يبدو عليه أنه هازئ به ، بل كان جاداً أشد الجد يرميه بنظرات حادة كاد أن يتجمد لها غرينغوار . قال له :

– إنك تمارس مهنة رائعة .

– لا شك أن الأجدى للمرء أن يتفلسف وينظم الشعر من أن يحمل الكراسي بأسنانه ، ولكن علينا أن نعيش ، وإن أروع الأشعار من البحر الطويل لا تساوي قطعة جبن صغيرة تمضغها الأضراس ، و قد علّمني أصحابي الرعاع هذه الألعاب ، ولا ريب أنها مهنة لا تتناسب مع مواهبي الفكرية ، فلم يخلق الإنسان ليقضي حياته يحمل الكراسي بأسنانه على دق الطبول ، ولكن يا سيدي القس لا يكفي المرء أن يعيش ، بل عليه أن يكسب لقمة عيشه أيضاً .

وكان القس كلود يصغي إليه ساكتاً ، وفجأة التمعت عيناه وحدقتا في غرينغوار حتى ظن انهما تخترقان عمق روحه :

– حسناً يا أستاذ بيير .. ولكن كيف حدث أن أصبحت الآن تسعى مع هذه الراقصة الغجرية ؟

وبدأ غرينغوار يروي له قصة زواجه العجيب ، وكيف أن الإسميرالدة قد أنقذته ، واعترف بفضلها عليه ، وهو يراها مخلوقة مسالمة رائعة ، وأن أهل حارتها يحبونها لمرحها ولطفها وغنائها . وختم غرينغوار حديثه قائلاً :

– ولا تظن أن أحداً في المدينة كلها يكرهها سوى شخصين : امرأة منعزلة في برج رولان ، فهي تلعنها كلما مرت أمام نافذتها ، وأحد القساوسة الذي لا يراها حتى يخيفها بألفاظه ونظراته .

وحين أنهى غرينغوار كلامه أمسكه القس من كتفيه وساقه إلى خارج الكنيسة ثم حث خطاه واختفى بين

أعمدها ، ونظر إلى الساحة فلم يجد خطراً يتهدده ، إذ أن المتفرجين وضحايا لعبته قد نسوه وهم يتفرجون على الإسميرالدة الغجرية التي لا تفكر إلا بشخص واحد هو فوبوس وبموعده الذي همس لها به .

الفصل الثالث عشر

حب المتوحش

إن الحب المتحكم في شغاف القلب لم ينشأ لدى فوبوس إذ شاهد الإسميرالدة ، وإنما نشأ في قلب قارع الأجراس في كنيسة نوتردام ، لقد كان كازيمودو – الأعور الأصم ، المعوج الساقين ، اللامثيل لقبحه – يحب الإسميرالدة حباً يفوق حبها لفوبوس ، وهذا سر لم يطلع عليه أحد ، ولكنه بدّل أجواء المدينة كلها بهذا الحب .

لقد كانت نواقيس الكنيسة من قبل تصدح مرحة يتسابق رنينها في ألحان موزونة تعلن بأفواهها النحاسية عن بهجة الحياة ، وأما الآن فقد فارقتها الروح وكأن الكنيسة الكئيبة قد أخلدت راضية إلى السكون .

لا فرق لدى النواقيس بين رنين الحزن ورنين الأعياد ، وإنما هي طقوس تُؤَدّى بما تقتضيه بلا زيادة أو نقصان .



لو أن العقوبة التي أنزلت بكازيمودو قد نالت سواه لحطمت روحه ، ولكن القلب القاسي والروح البدائية اللذين يملكهما كازيمودو يجهلان هذه المذلة ، ولم يحتفظ من منصة التعذيب إلا بذكرى صافية نضرة كأنها ماء الغدير ، وقد اتسع أمام بصره عالم جديد أطلعته عليه الإسميرالدة حين روّت عطشه وهي ضحيته ، فسكنتْ حينئذٍ فكرَه وروحَه ، وكانت صورتها الوضاءة ترافقه في حركاته وسكناته عبر الكاتدرائية وفي ذرى هذه الغابات الحجرية من أعمدة وتماثيل .

وأحياناً كان يبصرها من عليائه ، فيتوقف عن الحركة وينسى كل شيء سوى النظر إليها والتملي في جمالها .

الفصل الرابع عشر

حب سيد مهذب

لقد رأينا كيف أزهر في قلب ذلك الرجل المشوه حب صادق خجول ، فكيف هو حب ذلك الذي مالت إليه الإسميرالدة ؟ تستطيع أن تكوّن فكرة عن هذا الرجل حين تعرف المكان الموبوء الذي يرتاده كل مساء مع رفاق السوء ، ومن بينهم يوهان التلميذ المعروف بسيرته الفاسدة .

وعلى حين كانت الإسميرالدة تخترق شوارع باريس ودروبها الضيقة المعتمة متوجهة إلى لقائه ، كان هو يقضي وقته مع المتسكعين والمبذرين أموالهم على المتع المبتذلة ، وما إن أصبحت الساعة الرابعة حتى نهض وقال لصاحبه يوهان :

– يجب أن أتركك الآن ، إنها السابعة وعندي موعد مع حسناء .

وما إن دخل شارع سانت أندريه ديزار حتى أبصر أشباح رجال تزحف وراءه ، فلم يهتم بهم فهو رجل شجاع يستطيع السيطرة عليهم بقبضة يد واحدة ، وكان اعتداء اللصوص على المارة أمراً معتاداً في ذلك العهد ، فما إن تغيب الشمس حتى يدخل الناس بيوتهم ولا يخرجوا منها .

وصل أخيراً أمام باب واطئ وقرعه بعنف ، وسأل صوت من الداخل :

– من هناك ؟

فعرّف بنفسه ، فانفتح الباب عن امرأة عجوز ، ودخله وهو يسأل كمن تعود المجيء إلى هنا :

– هل الغرفة جاهزة ؟

– في خدمتك سيدي .



ووضعت الدينار الذي أعطاه لها في الدرج ، وحينما أدارت ظهرها سارع ولد صغير فالتقطه ووضع مكانه ورقة شجر صغيرة يابسة .

وجعل فوبوس يتمشى في الغرفة بفارغ الصبر ، فكانت أرضيتها تصدر أصواتاً غريبة وكأنها ستنهار تحت قدميه .

الفصل الخامس عشر

الحب البريء

فجأة سمع صوت الدرج الخشبي يئن تحت خطوات شخص يصعد ، ثم جاءت العجوز تحمل المصباح ووراءها الإسميرالدة الحسناء ، لقد أسلفنا القول إن هذه الفتاة الساذجة قد وجدت أمراً طبيعياً أن ترى فوبوس في هذا المكان المنعزل ، ولكن حينما تركتها صاحبة البيت وبقيت وحدها أحست بانقباض في روحها ينبئها بأنها لم تكن على صواب ، فاحمرت خجلاً وندماً وفوشت رموشُ عينيها ظلاً على خديها ، وجلست أمامه على مقعد خشبي ، والعنـــزة قابعة أمام قدميها .

وحاولت أن تعتذر فقالت دون أن ترفع عينيها :

– ليعذرني سيدي إذا قلت له إني أحس بالذنب .

فأجابها بلهجة افتخار واعتزاز :

– ولماذا الاعتذار أيتها الحسناء ؟

– لأني جئت معك .

فقال لها :

– لا أعذرك ولكني أحقد عليك .

نظرت الفتاة جزعة :

– ولماذا تحقد علي ؟

– لأنك تمنّعت عليّ مدة طويلة .

بقيت الإسميرالدة ساكتة برهة ثم انحدرت الدموع من عينيها وتنهدت قائلة :

– آه يا سيدي .. إني أحبك .

وكان يضوع من الفتاة عطر الطهارة والبراءة ، حتى إن فوبوس لم يشعر بارتياح ، ولكن أعجبه هذا القول فقال :

– تحبينني ؟ ثم طوق خصرها بذراعيه ، فتابعت قولها :

– فوبوس ، إنك رجل شهم كريم أنقذت حياتي ، أنا الفتاة الغجرية ، ولطالما حلمت بأن ينقذ ضابط حياتي ، وكنت أنت تفسير حلمي بجمالك وقوامك وسيفك .

لم يسمع فوبوس طول حياته مثل هذه الموسيقا ، لأن السيدات من طبقته يتكلفن الحديث بعبارات منمقة تمس سمعه ولكنها لا تمس قلبه ، وأما هذه الغجرية فقد تسربت كلماتها إلى شغاف قلبه ، ولو كانت في حضرة رجل عالي النفس كريم الروح لجثا على ركبتيه أمامها طالباً الصفح لأنه جاء بها إلى هذا المكان الموبوء .

أما فوبوس فلم تكن له من المزايا سوى قوة بطشه وجمال وجهه ، ولكنهما لم يسهما في الرقي بروحه .

وقد أمتعه وَجْدُ الغجرية به ولم يدهشه ، فنهض كالطاووس يستعرض قوامه ويتمشى لكي تسمع رنين مهمازيه .

فهتفت الفتاة :

– آه .. ما أروعك !

فعلت وجهه ابتسامة واتخذ مكانه بجانبها وقال :

– اسمعي يا عزيزتي .

– لا .. لا .. لا أريد أن أسمع منك سوى كلمة واحدة : هل تحبني ؟

– تسألينني إن كنت أحبك ؟ يا ملاك حياتي ، إن جسدي ودمي وروحي ملك يديك ، إني أحبك ولم أحب امرأة سواك .

ولطالما ردد هذه العبارات المعسولة على مسامع الفتيات قبلها ، بحيث اندفع في إلقائها دون أن تخونه ذاكرته ، وأحست الغجرية كأنها تحلق في السموات العلى وقد تملكها حب ملائكي فهمست :

– آه .. كم أتمنى لو أموت اللحظة !

وهتف الضابط :

– تموتين ؟ ماذا تقولين يا ملاكي الجميل ؟ إنها بداية الحياة الهانئة لك ، اسمعي يا عزيزتي سميلا .. عفواً الإسميرالدا .. ولكنّ اسمك الشرقي يصعب علي النطق به .

– يا إلهي .. كنت أظن اسمي متميزاً لا يشبهه اسم آخر .. وإن شئت ناديني غوتون .

– لا تبكي لهذا الأمر اليسير .. سأعتاد عليه ، وسوف أحفظه عن ظهر قلب ، وأعرف فتاة تموت حسداً منك .

– من هي ؟

– وهل يهمك أمرها ؟ هل تحبينني ؟

– آه ..

– هذا كل ما يهمني ، وسترين كم أحبك أيضاً ، وليأخذني الشيطان إليه إن لم أجعلك أسعد كائنات الأرض . سأستعرض تحت نافذتك فرقتي العسكرية ، سآخذك لتتفرجي على أسود القصر الملكي ، وهي حيوانات متوحشة ، كل النساء يحببن هذا .

كانت الفتاة غارقة في أفكارها مسحورة بها تسمع كلماته دون أن تصغي إلى معانيها ، والتفتت إليه فجأة وقالت بلهجة حب عارم :

– دعنا نتزوج فوراً .

فارتسمت على وجهه تعابير الدهشة والكراهية ، وفكر : " هذه الغجرية المتشردة الراقصة على الطبلة .. هل هي مجنونة حتى تطمح إلى الزواج بي ؟ وأنا الذي أتوقع منها متعة عابرة ؟ " .

ونظرت الغجرية إليه فلم تعد ترى فيه فوبوس الذي تخيلته ، وإنما شخصاً آخر له ملامح القاتل ، وهجم عليها يريد افتراسها ، فالتمع خنجر وصرخ الضابط :

– أيتها الملعونة !

وأغمي عليها .

وحين أفاقت من غشيتها ، وجدت نفسها محاطة بالجنود ، وقد حملوا الضابط الغارق في دمائه ، والنافذة المطلة

على النهر مفتوحة على مصراعيها ، وسمعت من يقول بجانبها :

– إنها ساحرة ، طعنت ضابطاً .

الفصل السادس عشر

إسميرالدة أمام القضاء

كان غرينغوار وكل سكان (ساحة العجائب) في حالة من القلق القاتل ، وقد مرّ شهر على اختفاء إسميرالدة مع عنـــزها ، وقد بحث عنها ملك مصر وأتباعه من المجرمين ولم يعثروا عليها .

ذات يوم كان الشاعر يمر أمام المحكمة ، فرأى جمعاً غفيراً من الناس فسأل أحد الفتيان :

– ماذا يحدث هنا ؟

– لا أدري يا سيدي .. يقال إنهم يحاكمون فتاة اغتالت ضابطاً في الحرس الملكي ، وأظنهم تحدثوا عن قضية تتعلق بالسحر ، وإن أخي رئيس الأساقفة في نوتردام ضالع فيها .

لم يجرؤ غرينغوار أن يقول للفتى إنه يعرف أخاه رئيس الأساقفة ، والذي لم يره منذ شاهده وهو يرفع الكراسي

بأسنانه . وتابع الفتى طريقه ومشى كرينغوار وراء الجمهور الذي يصعد الدرج .

قال في نفسه : لا شيء ينسيني همومي مثل حضور المحاكمة .

كانت القاعة فسيحة معتمة مما زادها اتساعاً ، ولم يكن ضوء النهار يخترق نوافذها العالية ، وبدا مَنْ في القاعة كالأشباح تتحرك في الظلام ، وقد اشتعلت الشموع هنا وهناك ، فانعكس نورها على وجوه كتبة المحكمة المنصرفين إلى أوراقهم .

وسأل غريغوار شخصاً بجواره :

– من هؤلاء الرجال المصطفون هناك ؟ هل هم القضاة ؟

فأجابه الرجل :

– أما الرجال في الملابس الحمراء فهم من المحكمة العليا ، والرجال في الملابس السوداء هم قضاة التحقيق .

– وهذا الرجل بثيابه الحمراء الزاهية ؟

– إنه رئيس المحكمة .

– وهؤلاء الخراف وراءه ؟

– انهم محامو الدفاع !

– وهذا الخنـــزير أمامه ؟

– إنه كاتب المحكمة .

– وهذا التمساح على يمينه ؟

– إنه الأستاذ فيليب لوهليه محامي الملك الخاص .

– وهذا القط السمين على يساره ؟

– إنه الأستاذ جاك شارمولي ، إنه النائب العام في محكمة الكنيسة مع الهيئة الدينية العليا .

– وماذا يفعل كل هؤلاء القوم ؟

– يحاكمون .

– يحاكمون ؟ من يحاكمون ؟ لأني لا أرى المتهم .

– إنها متهمة ، هي امرأة لا تراها من مقعدك هنا لأنها أدارت لنا ظهرها وأخفاها الزحام عنا .

وسأله غرينغوار :

– من هذه المرأة ؟ هل تعرف اسمها ؟

– لا يا سيدي فقد جئت الآن ، ولكن القضية تتعلق بالسحر حتماً لأن الهيئة الدينية تشهد المحاكمة .

هناك طلب منهم رجل بجانبهم السكوت فقد بدأت المحاكمة .

تكلمت امرأة عجوز ملتفة بثيابها ولا يظهر منها سوى عينيها فقالت :

– يا سيدي الكريم ، أنا امرأة فقيرة أسكن منذ أربعين سنة حارة سان ميشيل المطلة على النهر ، وذات يوم طرق الباب ضابط وطلب مني غرفة في الطابق الأول ، ودفع لي ديناراً وضعتُه في الدرج ، وقلت لنفسي : سأشتري به غداً لحماً من السوق ، وبعد قليل طرقت الباب فتاة غجرية ومعها

تيس أبيض أو أسود ، لا أدري ، ولم تنظر الفتاة إليّ ولكن التيس حدّق بي بعينين ملتهبتين ، وصعدتْ إلى غرفة الضابط والتيس يتبعهما ، وبعد وقت قصير سمعت صرخة مخيفة وشيئاً يسقط على أرض الغرفة ، فجريت ويا للهول ما رأيت ! غرفة ملوثة بالدماء ، والضابط ممدد على الأرض وقد انغرس خنجر في عنقه ، والفتاة مثل القتيلة ، وأما التيس فكان يقفز في كل مكان ، فاستدعيتُ الحرس فدخلوا ، وشرحت لهم ما حدث ، وصعدنا جميعاً إلى أعلى .. وحملوا الضابط المسكين وأنهضوا الفتاة ، ولكن الأمر الذي اقشعر له بدني هو أني حين فتحت الدرج لآخذ الدينار ، وجدته قد تحول إلى ورقة شجرة يابسة . وسكتت العجوز .

وارتفعت همهمة عالية بين جمهور الحاضرين .

وقال أحد جيران غرينغوار :

– هذا التيس وهذه الورقة اليابسة تفوح منها رائحة السحر .

وكان غرينغوار متفقاً معه في رأيه ، ثم نهض القاضي الذي شبهه غرينغوار بالتمساح وقال :

– وهل جئت معك بتلك الورقة اليابسة التي تحول الدينار إليها ؟

فأجابت :

– نعم يا سيدي .. لقد وجدتها .. وها هي ذي !

فأخذها الكاتب وقدمها للتمساح الذي هز رأسه وأرسلها إلى محامي الملك ثم إلى الهيئة الدينية بحيث تنقلت بين أيدي القضاة كلهم .

قال الأستاذ جاك شارمولي :

إنها ورقة بتولة وهي دليل قاطع على ممارسة السحر ، وقد أزال هذا الرأي القاطع كل شكوك الحاضرين .

وتابع محامي الملك قائلاً :

– إن بين أيدي السادة كل الوثائق بما فيها أقوال فوبوس شاتوبرس .

وما أن نطق اسمه حتى نهضت المتهمة وظهر رأسها ، فارتعد غرينغوار إذ كانت الإسميرالدة .

كانت شاحبة ، وأما شعرها الذي كانت تمسده وتجدّله فقد تناثر أشعث حول كتفيها ، وشفتاها زرقاوان وعيناها غائرتان من الرعب ، وهتفت :

– فوبوس ؟ أين هو ؟ يا سادتي بحق الله قولوا لي قبل أن تقتلوني إن كان ما يزال حياً .

فأجابها رئيس القضاة :

– اخرسي يا امرأة ، ليست هذه القضية الآن !

فشبكت يديها الرقيقتين ضارعة وقالت :

– أرجوكم ، قولوا لي إن كان ما يزال حياً .

فقال محامي الملك بجفاء :

– إنه على وشك الموت ، هل فرحت ؟

فارتمت البائسة على مقعدها صامتة وكأنها دمية من الشمع .

– أيها البواب .. أدخل المتهمة الثانية .

وتوجهت الأنظار كلها نحو باب صغير بجانب القاعة ، ورأى غرينغوار مندهشاً العنـــزة ذات القرنين والظّلفين المذهّبين ومدت عنقها ، وفجأة رأت الغجرية فقفزت فوق الطاولة وفوق رأس الكاتب ، وجلست فوق ركبتي الغجرية ، وجعلت تحك رأسها بقدمي صاحبتها تستجدي منها كلمة أو لمسة حنان ، ولكنها ظلت جامدة ولم ترفع جالي نظرها إليها .

وقالت العجوز :

– إنها هي .. الحيوان البشع .. وأعرفهما الآن جيداً

وتدخل جاك شارمولي :

– إذا أذنَ لي القضاة فسأعمد الآن إلى استجواب العنـــزة . حينئذ نهض محامي الادعاء للهيئة الدينية وقال :

– إذا استمر الشيطان الساكن جسد العنـــزة في ألاعيبه ، فسوف نضطر بعد إذن هيئة القضاء الموقرة إلى إحراقها حية .

وتصبب العرق بارداً من جبين غرينغوار ، ثم أمسك شارمولي بطبلة الغجرية وعَرَضها بطريقة خاصة على العنـــزة وقال :

– كم الساعة الآن ؟ .

فرمته العنـــزة بنظرة ذكية ، ثم رفعت قدمها الذهبية ودقت عليها سبع مرات ، وكان الساعة السابعة فعلاً ، واجتاحت جمهورَ الحاضرين حركة فزع ، ولم يعد غرينغوار قادراً على السكوت فصرخ بأعلى صوته :

– إنها مدربة .. ألا ترونها لا تدرك ما تفعله ؟

وصرخ به الكاتب : سُكُوت .

وتابع جاك شارمولي هذه العملية بأن طلب من العنـــزة تاريخ اليوم والشهر والسنة مما يعرفه القارئ من قبل ، وإن

المتفرجين الذين صفقوا لهذه الألاعيب الساذجة التي تقوم بها جالي في شوارع باريس ، قد وجدوا فيها أموراً دالة على السحر تحت قاعة المحكمة ، وقطعوا بأن العنـــزة هي الشيطان نفسه ، وساءت الأمور أكثر حينما فتح شارمولي الصرة الجلدية المعلقة في رقبة العنـــزة ونثر حروف الأبجدية المتقطعة ، وطلب من العنـــزة أن تعيد ترتيبها ، فإذا هي كلمة : فوبوس .

وقال رئيس المحكمة :

– أيتها الفتاة ، أنت من جنس الغجر ، وقد تدربت على السحر ، وإنك بالتواطؤ مع هذه العنـــزة المسحورة

وبمساعدة من قوى الظلام قد عمدت ليلة **29** آذار إلى طعن وقتل ضابط في الحرس الملكي المدعو فوبوس شاتوبرس ، فهل تصرين على إنكار التهمة الموجهة إليك ؟ .

فأخفت الفتاة يديها بين كفيها وهتفت :

– ياللهول .. آه يا فوبوس .. إنه الجحيم .

فسألها رئيس المحكمة ببرودة :

– أتصرين على الإنكار ؟

فنهضت وقد التمعت عيناها :

– نعم إني مصرة على الإنكار ، أطالب بمتابعة الاستجواب .

وارتعشت البائسة رعباً ، وجذبها الحرس إلى باب صغير في صدر القاعة وخرجوا منه جميعاً ، ورفعت الجلسة .

الفصل السابع عشر

الاستجواب

ساق الحرس الإسميرالدة أمامهم وصعدوا بها عدداً من الدرجات وهبطوا أخرى حتى وجدت نفسها في غرفة التعذيب ، ويدعونها تخفيفاً لوقعها على الآذان غرفة الاستجواب ، وحين فتح باب التنور كانت قضبان من الحديد تسد مدخله وكأنه فم تنين أسنانه سوداء يرمي باللهيب ، وعلى ضوء هذه النار اللاهبة وجدت السجينة حولها أدوات مخيفة لا تعرف لأي شيء تستعمل ، ففي وسط الغرفة فراش عريض من الجلد يستعرضه حزام له إبزيم من النحاس ، وكماشات وملاقط وحديد عجلة عربة أمام التنور ، هذا الخليط من الأدوات من مستلزمات غرفة الاستجواب .

وكان يجلس باسترخاء على سرير الجلد الجلاد المدعو بييرا تورتيري وأمامه مساعدان له يرتديان مئزراً من الجلد ويحركان نار التنور .

وأحست البائسة برعب لا يوصف وهي تدخل هذه الغرفة التي وقف في ناحية منها ضابط الاعتقال وفي الناحية الأخرى رجال الهيئة الدينية ، وفي زاوية كان هناك طاولة جلس وراءها كاتب المحكمة ، واقترب الأستاذ جاك شارمولي من الغجرية بابتسامة هادئة وقال :

– يا بنيتي العزيزة هل تصرين على الإنكار ؟

فقالت بصوت خافت :

– نعم ..

– نحن مضطرون في هذه الحالة إلى استجوابك بأكثر قسوة مما نريد ، هل تتفضلين بالجلوس على السرير !

وظلت الإسميرالدة واقفة ، لقد كان هذا السرير الذي تلوّى عليه الكثير من الناس البائسين يخيفها ، ونفذ الرعب

إلى عظامها . كانت واقفة جَزِعةً بلهاء ، وبإشارة واحدة من شارمولي هجم عليها الخادمان وأجلساها على السرير ولم يؤذياها ، ولكن حين لامست السرير تدفق كل دمها إلى قلبها ، وألقت نظرة تائهة على ما حولها ، وسأل شارمولي :

– أين الطبيب ؟

فأجابته ملابس سوداء :

– إني هنا .

وسأل بييرا فجأة :

– من أين نبدأ يا حضرة المدعي العام ؟

فتردد شارمولي لحظة وعلى وجهه ملامح الشاعر يبحث عن قافية لقصيدته وقال :

– لنبدأ بالفلقة .

وشعرت البائسة بأن الله تخلى عنها ونبذها الناس ، فارتمى رأسها على صدرها كأنه عضو منفصل عنها لا قوة له تدعمه ، ودنا منها الجلاد والطبيب معاً ، وبدأ الخادمان

يبحثان في ترسانة الأدوات ، وجذب الجلاد قدميها البضتين اللتين طالما رقصتا على أرصفة باريس ، ورأت من وراء غمامة سوداء الفلقة التي يحملها الجلاد ، ثم أحكم إغلاقها على قدميها ، وأعاد إليها الفزع شيئاً من قوتها .

وصرخت :

– أبعدوها عني أتوسل إليكم .

وارتمت على قدمي المدعي العام ، والفلقة تعض قدميها بأسنانها الحديدية وكأنها نحلة أثقل جناحيها الرصاص .

وبإشارة من شارمولي أعادوها إلى السرير وأحكمت يدان خشنتان الحزام على صدرها . وسألها شارمولي :

– أسألك للمرة الأخيرة أن تعترفي .

– إني بريئة .

فقال شارمولي لبييرا :

– ابدأ !

وشد الجلاد أسنان الحديد ، فأطلقت صرخات بائسة لم تخترع اللغات الإنسانية مفردات للتعبير عنها بعد .

وطلب شارمولي من بييرا أن يتوقف وقال لها :

– اعترفي !

– أعترف .. أعترف بكل ما تريد .. الرحمة !



كانت مخطئة في تقدير قوتها على مواجهة الاستجواب ، لقد كانت حياتها حتى الآن مرحة آمنة وقد هزمتها أول مواجهة للآلام .

فقال لها المدعي العام :

– إن الرحمة الإنسانية تدعوني إلى أن أقول لك إن نتيجة اعترافك هي الموت .

فقالت :

– كم أتمنى الموت .

وارتمت كالميتة منطوية على نفسها وحزام الجلد يقسمها نصفين ، ورفع جاك شارمولي صوته يخاطب الكاتب :

– اكتب أن الفتاة الغجرية قد اعترفت بممارستها أعمال السحر ، وصنعها للأحجبة الشيطانية ، ومشاركتها في فطير السبت ، أجيبي !

فقالت بصوت متماوت :

– نعم

– وهل تعترفين باتصالك بالشيطان الذي أخذ شكل عنــزة أليفة ؟

– نعم

– وهل تعترفين بأنك في ليلة التاسع والعشرون من آذار الماضي استغثت بالشيطان لقتل الضابط المدعو فوبوس شاتوبرس ؟

ورفعت إلى المدعي العام عينيها الواسعتين وأجابت دون تفكير :

– نعم !

وكان واضحاً أن كل شيء قد تحطم في داخلها .

فقال شارمولي :

– سجل يا كاتب .

ثم توجه إلى الجلادين :

– فكّوا السجينة وخذوها إلى المحكمة .

وحين دخلت قاعة المحكمة شاحبة تعرج ، استقبلتها همهمة فرح شاملة ، وكأنه جمهور يشاهد مسرحية هزلية سوف يعرض عليه آخر فصولها ، وأما القضاة فكان دخولها أملاً لهم في العشاء القريب ، وحتى العنـــزة استقبلتها بثغاء الفرح وأرادت أن تجري إلى صاحبتها ولكنها كانت مربوطة إلى المقعد .

وجرّوا الإسميرالدة إلى مقعدها ، وجلس شارمولي بكامل أُبّهته في مقعده ثم نهض وقال :

– اعترفت الغجرية بكل شيء .

فقال رئيس الجلسة :

– أيتها الغجرية ، هل اعترفت بممارستك السحر وقتلك فوبوس شاتوبرس ؟

وانقبض قلبها وكانت تنتحب بصمت :

– أعترف بكل ما تريدون ، ولكن عجلوا في قتلي .

وأمسك شارمولي دفتراً وجعل يقرأ فيه ، وألقى أمام الحضور مرافعة بليغة لا تخلو من المصطلحات اللاتينية المعبرة .

وانتقل القضاة إلى التصويت فهزوا رؤوسهم بالموافقة ، وكانوا مستعجلين ، فسمعت البائسة الناس همهم وصوتاً عالياً يقول :

– أيتها الغجرية ، في اليوم الذي يقرره مولانا الملك وعند الظهر ستركبين الطُنْبر حافية القدمين والحبل في عنقك حتى بوابة كاتدرائية نوتردام وبيدك رطلان من الشمع ، ومن هناك إلى ساحة غريف حيث ستشنقين حتى الموت ، وعنــزتك أيضاً ، وتدفعين غرامة مقدارها ثلاثة دنانير ذهبية ، وذلك عقاباً على جرائمك التي اعترفت بها ، وهي ممارسة السحر وقتل السيد فوبوس دي شاتوبرس ، وليرحمك الله !

همست لنفسها : إنه حلم .

وقبضت عليها أيدٍ قوية ، ووجدت نفسها في الزنزانة محرومة من الهواء والشمس ، وكانت تفكر في القبر الذي يضم جثمان حبيبها ، وكانت نادمة لأنه توجه إلى حتفه بقدميه ، فماذا لو لم يواعدها في منــزل العجوز ! آه .. كم كان وسيماً تلك الليلة بمهمازيه البراقين ! وسقطت على الأرض ووجهها إلى التراب ، ضائعة الآمال .

الفصل الثامن عشر

قلب متقلب

لم يكن فوبوس قد مات ، فالناس من فصيلته تطول حياتهم ، وحينما قال فيليب لوهييه محامي الملك لإسميرالدة إنه يموت فكان ذلك خطأ منه أو سخرية بها .

وليس لأن جراحه لم تكن خطيرة ، بل لأنها لم تكن قاتلة ، وقد ظلت حياته في خطر ثمانية أيام ، ولكن فُتوّته تغلبت على الموت ، وحينما كان في المستشفى بين الحياة والموت استجوبه المدعي العام والهيئة الدينية فأتعبه هذا كثيراً ، ولكنه حين استرد وعيه دفع مهمازيه الذهبيين إلى المشرف على علاجه واختفى .

ولم يكن اختفاؤه ليعيق سير القضية ، فقد تجمع لدى القضاة ما يكفي من الأدلة لإدانة الإسميرالدة ، وقد حسبوا فوبوس ميتاً ، وجرى الذي جرى .

وأما فوبوس نفسه فلم يلفت الأنظار إليه ، ولم يذكر شيئاً من هذه الأحداث لأحد ، لأنه لم يشأ أن تلوث سمعته في هذه المحاكمة ، كما أنه أحس إحساساً غامضاً بأنه كان مسوقاً إلى مقابلة الغجرية بقوة سحرية خفية ، ولا يريد أن تفسد العلاقة بينه وبين فلورديلي ، وهي فتاة جميلة وتجلب معها ورطة هامة .

بعد شهرين من تلك الحادثة التي شفي منها تماماً وكاد ينساها تقدم الفارس العاشق إلى باب مسكن آل غوندلورييه وطرقه ، وانتبه إلى تجمع الناس في الساحة أمام باب كاتدرائية نوتردام ، فظنهم يحتفلون بإحدى المناسبات أو أحد الأعياد ، فربط فرسه في المدخل وصعد فرحاً لمقابلة خطيبته .

كانت جالسة مع أمها ، وهي لم تنس بعد زيارة تلك الغجرية مع عنـــزها وكيف أن العنـــزة رتبت اسم فوبوس بحروف تحملها في صرة من الجلد ، وعجبت لغيبة خطيبها الطويلة ، وحين رأته وجدته مشرق الأسارير ، فاحمرت

خجلاً وازدادت جمالاً بثوبها الأزرق السماوي الذي يتناسب مع جدائل شعرها الذهبي .

جلست قرب النافذة تطرز صورة مرسومة على القماش وبجانبها الضابط يهمس لها بكلمات تعبر عن شوقه إليها ، ورمى ببصره إلى الشارع وقال :

– ما هذا الجمع الغفير من الناس ؟

فقالت فلورديلي :

– سوف يشهّرون بساحرة أمام الكنيسة ثم يشنقونها بعد ذلك .

ولم يهتم الضابط بكلامها لأنه ظن أن قضية الإسميرالدة قد انتهت تماماً .

وسألها :

– ما اسم هذه الساحرة ؟

– لا أعرف .

– وما فعلت ؟

فهزت فلورديلي كتفيها وقالت :

– لا أعرف .

قالت الأم :

– آه يا رب .. لكثرة الساحرات هذه الأيام صاروا يحرقونهن دون معرفة أسمائهن .

وقالت فلورديلي فجأة بصوت خفيض :

– فوبوس .. سوف نتزوج خلال ثلاثة أشهر .. قل لي إنك لم تحب امرأة سواي .

فأجابها وهو يتأمل ملامحها ليدعم صدق لهجته :

– أقسم لك ، يا ملاكي الجميل !

في تلك اللحظة أعلنت ساعة الكنيسة منتصف النهار ، وارتفعت همهمة الاستحسان بين الجمهور .

في تلك العربة المشؤومة ، جلست فتاة وقد رُبطت يداها وراء ظهرها ، ليس عليها سوى قميص طويل ينحسر عن كتفيها ، وشعرها الأسود يتناثر حول وجهها ، ومن خلاله

تستطيع أن ترى حبلاً غليظاً قد التف حول عنقها كما تلتف الدودة حول الزهرة ، وتحت هذا الحبل يلتمع عقد من الخرز الأخضر قد تركوه لها تلبية لرغبتها الأخيرة قبل الموت .

قالت فلورديلي بدهشة :

– آه .. يا رب ، انظر يا بن عمي ! إنها تلك الغجرية البشعة صاحبة العنــزة .

والتفتت إلى فوبوس الذي كان يثبت نظرته على الطُّنْبر وقد شحب وجهه ، فأجابها متلعثماً :

– أي غجرية وأي عنــزة ؟

وقالت فلورديلي :

– كيف ؟ ألا تذكرها ؟

– لا أعرف عمن تتكلمين !

وخطا خطوة ليدخل إلى القاعة ، فقالت كالآمرة له :

– لنبق هنا حتى النهاية .

واضطر الضابط إلى البقاء . كان الطُّنْبر قد دخل الساحة وتوقف أمام باب الكاتدرائية ، وخيّم الصمت على الحاضرين ، حينئذٍ ، انفتحت درفتا الباب الضخم ولهما صرير مرتفع ، وظهرت كاتدرائية معتمة لا تضيئها سوى بضع شمعات حتى المذبح الرئيسي ، وساعدها الخدم على النـــزول من الطُّنْبر ، ومشت حافية القدمين وقلبها يدق : فوبوس . وأطلق قيد العنـــزة أيضاً ، فبدأت تثغو وهي تجري وراء صاحبتها ، ووصلت الغجرية حتى درجات الكنيسة والحبل الذي في عنقها يتدلى وراءها .. توقف الإنشاد في الكنيسة ، وتحركت الشموع في الظلام ، ومعها صليب ذهبي كبير يحرسه الجنود السويسريون برماحهم الطويلة وملابسهم الملونة ، وتوجه الموكب نحو المحكوم عليها بالإعدام ، فنظرت إليه ، ولكن بصرها توقف عند الرجل الذي يمشي مباشرة بعد حامل الصليب الذهبي ، وهمست وقد ارتعدت فرائصها :

– إنه هنا هو أيضاً .. القس !

وكان رئيس الأساقفة وقد ارتدى ثياباً مزينة بالخيوط الفضية زادت من اصفرار وجهه حتى لتحسبه أحد التماثيل الرخامية .

اقترب رئيس الأساقفة منها بهدوء ثم قال بصوت مرتفع : أيتها الفتاة .. هل طلبت من الله المغفرة لخطاياك ؟

فنظرت إليه بثبات ولم تجبه ، فرفع يده فوق الغجرية ونطق عبارة باللاتينية يختم بها هذه الطقوس الكئيبة ، وهي الإشارة المتفق عليها بين القس والجلاد .

حين توجهت المسكينة إلى الطُّنْبر لتمضي نحو المحطة الأخيرة ، أحست برغبة في الحياة ، فرفعت عينيها الذابلتين إلى السماء والشمس وإلى السحب البيضاء ، ثم خفضتهما لتتأمل ما حولها من أرض وناس وبيوت ..

وجذب الجلاد يديها ليربطهما فندت عنها صرخة مذعورة أو صرخة فرحة . هناك في الشرفة في زاوية الساحة

رأت صديقها .. رأت فوبوس ! لقد كذب القاضي ، وقد كذب القس ، إنه هو لا ريب في ذلك ، إنه هناك ممشوق القامة جميل الوجه في بذلته العسكرية ، وعلى رأسه قبعة الريش وسيفه إلى جانبه .

فصرخت :

– فوبوس ، فوبوس !

وأرادت أن تمد إليه يديها ولكنهما مربوطتان ، ورأته يتكلم مع فتاة بجانبه ، ثم اختفى كلاهما وراء زجاج النافذة .

وصرخت بملء رئتيها :

– فوبوس .. هل أنت هنا ؟

ودارت في رأسها أفكار مخيفة ، لقد لاقت العذاب والذل والمهانة لأنها قتلت فوبوس ، ولكن هاهو ذا أمامها ، ولم يكلّفْ نفسَه عناء المثول في المحكمة لإثبات براءتها ، هذا أقوى مما تحتمله ، وسقطت على حجارة الشارع لا حراك بها .

قال شارمولي :

– هيا .. احملوها ولننته من هذا الأمر !

لم يلاحظ أحد بين التماثيل المنحوتة وجهاً شبيهاً بمثل هذه الوجوه الشائهة التي أقيمت منذ ستمائة سنة ، وقد مدّ عنقه ونظر بعينه الوحيدة يراقب ما يجري في الساحة منذ منتصف النهار .

كان قد ربط حبلاً متيناً ذا عقد بأحد الأعمدة العلوية وتركه يتدلى قريباً من بوابة الكاتدرائية الجانبية ، وحين سمع الأمر الذي أصدره شارمولي للجلاد نزل على الحبل وقد أمسك به بيديه وقدميه وركبتيه ، وانحدر على واجهة الكنيسة ، كأنه قطرة ماء تسيل على زجاج نافذتها .

وجرى نحو الجلادين بخفة قط سقط من أحد الأسطحة وسدد إليهما لكمة قوية من يده الضخمة ، وحمل الفتاة فوق رأسه وجرى بها إلى الكنيسة وهو يصرخ بصوت هائل :

اللجوء !



وردد وراءه الجمهور :

– اللجوء !

وتعالى تصفيق عشرة آلاف يد ، فالتمعت عين كازيمودو فرحاً وافتخاراً .

عادت الفتاة إلى وعيها وفتحت عينيها فرأت كازيمودو ، فأغلقتهما وكأنما أفزعتها رؤية منقذها .

وظلّ الجميع ذاهلين : شارمولي والجلادون والحراس ، والمعروف أن كنيسة نوتردام حرم لا يمكن اجتيازه ، وتنتهي

سلطة العدالة عند عتبتها ، ولا يمكن القبض على إنسان لجأ إليها .

توقف كازيمودو تحت البوابة الكبيرة حاملاً الفتاة بيديه الخشنتين ولكنه يحملها بحذر كمن يحمل زهرة يخشى عليها الذبول .

وخفض إليها عينه العامرة بالحب والعطف والحنان والألم ، ثم رفعها عنها لامعة بالشرر .

كانت النساء يضحكن ويبكين ، والناس قد اجتاحتهم عاصفة من الإعجاب ، فقد كان كازيمودو الآن جميلاً حقاً ، جميلاً بقوته وشهامته وهو اليتيم الأحدب المعوج الساقين .

كان واقفاً يتأمل هذا الجمع الذي نبذه فعاد إليه مرهوب الجانب ، وانتزع من عدالته هذه الفريسة ، وإذا هذه النمور الضارية تعضّ على الخواء ، وينهزم هؤلاء القضاة والجلادون ، وتنكسر قوة السلطة أمام سلطان الله .

بعد دقائق من النصر اختفى كازيمودو بمن يحمل داخل الكنيسة ، وهلل له الجمهور طويلاً ، ولكنه لم يعد إلى الظهور .

وفجأة رأوه في أعلى الكنيسة حاملاً الغجرية بين يديه وهو يجري ويصرخ كالمجنون :

– اللجوء .. اللجوء ..

وتعالى تصفيق الحاضرين .

أخيراً ظهر مرة ثالثة في قمة برج النواقيس وكأنه يعرض بافتخار على باريس كلها المرأة التي أنقذها بصوته الضخم الأجش الراعد الذي لم يسمع من قبل ، يصرخ ثلاث مرات وكأنما لتسمعه النجوم :

– اللجوء .. اللجوء .. اللجوء ..

وأجابه الجمهور :

– نويل .. نويل ..

الفصل التاسع عشر

حق اللجوء

كانت أماكن اللجوء منتشرة في العصر الوسيط سواء في قصور الملوك أو مساكن الأمراء والكنائس الخاصة ، وقد تكون المدينة كلها مكاناً للجوء إذا نقص عدد سكانها ، وأُريد أن يعمرها الناس ، وقد جعل لويس الحادي عشر باريس ملجأ سنة 1467 .

حينما يدخل المجرم الملجأ فلا يصاب بسوء ، ولكن عليه ألا يغادر فآلات التعذيب والمشانق والحرس يتربصون به كما تحيط أسماك القرش بالسفينة ، ولذلك يعد الملجأ سجناً مثل سواه ، وقد يُختَرق هذا الملجأ بقرار من المجلس النيابي ولكنه أمر نادر جداً .

وكان لكل كنيسة حجرة مخصصة للاجئين ، وفي كاتدرائية نوتردام تقع حجرة اللجوء في الناحية المطلة على الأعمدة الداخلية .

وإليها لجأ كازيمودو بعد صعوده إلى الأبراج .

ولم تكن الفتاة واعية لما يجري حولها بل كانت تحس كأنها ترتفع في الهواء وتطير ، وأن شيئاً ما يحلق بها فوق الأرض ، وحينما وضعها كازيمودو في الحجرة ونزع عنها قيودها ، عاد إليها الإحساس بما حولها ، ووجدت نفسها في نوتردام ، وتذكرت أن يدين قويتين قد انتزعتاها من الجلاد ، وأن فوبوس حي ، وأن فوبوس لا يحبها ، وقد اصطرَعَتْ هاتان الحقيقتان في ذهنها .

وأحست بطعم المرارة في فمها ، فالتفتت إلى كازيمودو الواقف أمامها يرعبها بقامته الهائلة وسألته :

– لماذا أنقذتني ؟

فجعل يتأملها حائراً وكأنما يداول سؤالها في فكره .

فأعادت عليه القول ، فنظر إليها نظرة عامرة بالحزن وهرب ، وبقيت ذاهلة .

بعد لحظات رجع كازيمودو ومعه صرة رماها أمامها وابتعد ، كانت بعض الملابس التي تصدقت بها امرأة على الكنيسة ، وهي ثوب أبيض وشال أبيض أيضاً ، فلبسته الإسميرالدة .

ورجع مرة ثانية يحمل سلة تحت إبطه ، وفراشاً تحت إبطه الآخر ، في السلة زجاجة ماء وخبز وبعض المأكل ، ووضع السلة على الأرض وقال : كلي .

ومد الفراش على الأرض وقال : نامي .

لقد آثرها بطعامه وفراشه .

ورفعت الغجرية عينيها لتشكره ، ولكنها لم تستطع النطق بكلمة ، إن المسكين بشع المنظر حقاً ، فخفضت رأسها وارتعشت خائفة ، فقال لها :

– لقد أخفتُك .. إنني بشع أليس كذلك ؟ لا تنظوي إلي ، اسمعيني فقط ، ابقي هنا طول النهار ، وأما في الليل فتجولي في الكنيسة كما تشائين ، ولكن لا تخرجي منها لا نهاراً ولا ليلاً وإلا شنقوك ، وإذا قتلوك أموت .

أثر فيها كلامه فرفعت رأسها لتجيبه فوجدته قد اختفى ، وظلت وحيدة تفكر في كلام هذا المخلوق الشبيه بالوحش وبصوته الأجش العامر بالحنان .

وتفحصت حجرتها ، كانت حجرة صغيرة ذات نافذة مدورة وباب منخفض وتطل منها على أسطحة باريس كلها .

كانا المنظر كئيباً بالنسبة إلى هذه الغجرية البائسة المهددة بالموت ، وهي اللقيطة التي لا أهل لها ولا سكن ولا وطن .

وفيما كانت غارقة في هذه التأملات المؤلمة اندس رأس مُشعِر بين يديها ، فارتعدت فزعة وإذا هي جالي التي هربت على إثرها ، فأمطرتها الفتاة بالقبل وقالت لها :

– آه يا حبيبتي .. لقد نسيتك يا جالي ولكنك تذكرتني ، لستِ جاحدة يا جالي ، فأنت تفكرين بي على الدوام .

وأحست بالوقت نفسه كأنما أزيح ثقل عن صدرها وأفسح لها المجال للبكاء ، فانسكبت من عينيها الدموع غزيرة وسالت معها مرارة آلامها .

الفصل العشرون

دودة الأرض ونجمة السماء

من الغد استيقظت وقد أدهشها أن تنام ، فهي لم تعرف النوم منذ زمن طويل ، كانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة فأيقظتها ، ولمحت في النافذة شيئاً رهيباً ، إنه وجه كازيمودو البائس ، فأغمضت عينيها دون إرادتها ولكن دون جدوى ، إذ كانت تتخيل صورته من وراء جفنيها المغمضين ، وسمعت صوته الأجش يقول بحنان :

– لا تخافي .. إني صديقك ، جئت لأراك نائمة ، هل تؤذيك رؤيتي لك وأنت نائمة ؟ وهل يضرّك أن تغلقي عينيك بحضوري ؟ سأذهب الآن ، إني وراء الجدار ، افتحي عينيك الآن .

كان شيئاً ما يتجاوز الألم في هذا الصوت الحنون ، ففتحت الغجرية عينيها ولم تجده فأطلت من النافذة لتراه

ملتصقاً بالحائط مستسلماً لأحزانه ، وبذلت جهداً لتتغلب على قرفها وقالت له بهدوء :

– تعال !

وفهم من حركة شفتيها أنها تطرده ، فنهض يجر قدميه ورأسه على صدره ، ولا يجرؤ على النظر إليها ، فصرخت ليسمعها : تعال هنا !

فتابع مشيته ، فخرجت من الحجرة وأمسكت بذراعه .

حين أحس بها ارتجف جسده كله ، وحينما رآها تدعوه إليها التمع وجهه بالفرح والحنان ، وأرادت أن يدخل الحجرة لكنه أصرّ على البقاء أمام عتبتها وقال :

– لا .. لا .. لا يدخل البوم عش القُبّرة .

فجلست على فراشها وعنـــزتها راقدة تحت قدميها ، وجعلت تتأمله وهو ينظر إليها ولا يقول أحدهما شيئاً .

وقطع السكون أولاً فقال لها : هل طلبت مني الدخول ؟

فقالت له : نعم . وأشارت برأسها ففهم إشارتها وقال :

– للأسف .. إني .. إني أصم .

فقالت بلهجة الندم : يا للمسكين !

– نعم إني أصم ، ولكن كلميني بالإشارات ، ومعلمي يتكلم معي بهذه الطريقة . فابتسمت وقالت : قل لي إذن ، لِمَ أنقذتني ؟

وراقب حركة شفتيها بانتباه وأجاب : لقد فهمت ، هل نسيت ذاك الشقي الذي حاول اختطافك ذات ليلة ، ذاك الشقي الذي سارعتِ إلى نجدته من الغد على منصة التعذيب ؟ قطرة ماء وشيء من الحنان ، هل تكفي حياتي للوفاء بهما ؟ لقد نسيتِ ذلك الشقي أم تذكرينه ؟

كانت تصغي إليه والحزن يسكنها ، وترقرقت في عين قارع النواقيس دمعة ولكنها لم تنحدر ، واستأنف كلامه :

– الأبراج عالية وإذا سقط المرء منها مات قبل أن يبلغ أرض الشارع .

وحين ترغبين في أن أرمي نفسي لا تنطقي بكلمة ، إشارة منك تكفي لأحلق في الفراغ .



الفصل الواحد والعشرون

غرينغوار وأفكاره العظيمة

منذ أن رأى بيير غرينغوار تطور هذه القضية وأن فيها حبلاً ومشنقة وسواهما من المنغصات في حياة الشخصيات الرئيسية لهذه الكوميديا ، لم يعد يفكر في التدخل فيها ، وقد تأكد له أن المجرمين الذين يعيش معهم هم خير رفاق له في باريس ، وما زالوا يهتمون بمصير الغجرية ، وعرف منهم أن زوجته ذات الجرة المكسورة قد لجأت إلى كاتدرائية نوتردام وأنها هانئة في حياتها .

ولكن لم يخطر له أن يذهب لزيارتها ، كان يفكر بالعنـــزة أحياناً ، هذا كل شيء .

ذات يوم ، كان واقفاً في شارع (سان جرمان ديكسرواه) إذ أحس بيد ثقيلة تمسك بكتفه ، التفت ، إنه

صديقه ومعلمه السابق السيد رئيس الأساقفة ، ظل رئيس الأساقفة ساكتاً بضع لحظات كان غرينغوار يتأمله خلالها .

ووجد أن الدون كلود قد تغير كثيراً ، فهو شاحب كأنه نهار شتائي ، عيناه كئيبتان وشعره أبيض ، وقطع القس الصمت بصوت وقور :

– كيف حالك يا أستاذ بيير ؟

– صحتي لا بأس بها إجمالاً .

وحدق القس في عينيه وقال :

– إذن لا شيء يشغلك يا أستاذ بيير ؟

– لا والله .

وابتسم القس ابتسامة مرة ترتجف على طرف فمه :

– أنت سعيد إذن ؟

– نعم .

– ولا تتمنى شيئاً ؟

– لا .

– ولا تندم على شيء ؟

– لا أتمنى ولا أندم ، عيشتي هانئة .

– وكيف تكسب لقمة عيشك ؟

– ما زلت أنظم بعض الملاحم والمسرحيات ، ولكن موردي الرئيسي من تلك المهنة التي تعرفها ، أرفع الكراسي بأسناني .

– مهنة لا تليق بفيلسوف مثلك .

– إنها نوع من التوازن .

سكت القس برهة ثم قال :

– بيير غرينغوار ماذا فعلت بتلك الراقصة الغجرية ؟ أليست زوجتك ؟

– نعم تزوجتها بجرة مكسورة لمدة أربع سنوات .

– حسناً فماذا فعل بها الزمان ؟

– أظنهم شنقوها .

– هل تظن ؟

– لا ، بل أعتقد ذلك ، حينما أبصرت حبل المشنقة انسحبت من اللعبة .

– هذا كل ما تعرفه ؟ اعلمْ إذن أنها لجأت إلى كنيسة نوتردام ، وإني مسرور لذلك ، ولم أعرف هذا لولا أني وجدت العنـــزة وقد هربت معها ، هذا كل ما أعرفه .

وارتفع صوت القس الذي ظل حتى الآن هادئاً :

– وأزيدك معرفة بأنها ستشنق بعد ثلاثة أيام ، فقد أصدر المجلس النيابي قراراً باستردادها من الكنيسة .

وكان غرينغوار على قدر من الذكاء يكفي لكي يدرك أن القضية اتخذت مساراً خطراً ، ولم يأسف لأنه لم يكن ضالعاً فيها ، وأحس تجاه القس – هذا الشيطان في ثياب مقدسة – بنوع من العداء الممزوج بالرعب .

واستنجد بكل معارفه الفلسفية ليطرح هذا السؤال بلهجة استعلاء :

– وهل العنـــزة مع الفتاة ؟

– نعم ، ليأخذها الشيطان .. وما أهمية ذلك ؟

كان لا يفكر ظاهراً إلا في العنـــزة الصغيرة ، ولكن خطرت له فكرة كاد يرقص لها لولا هذا القس الذي يرميه بنظراته .

وحين غادر القس ساءل نفسه عما دفع هذا الشيطان إلى إخباره بأن الفتاة ستشنق بعد ثلاثة أيام ، أليس هو الدوق فرولو الذي سعى للحصول على هذا الأمر من المجلس النيابي ؟

وهاهو الآن يسعى لإنقاذها ، أو يحثه على إنقاذ الفتاة التي أنقذت حياته هو . وتطورت في ذهنه خطة وهو في طريقه إلى مملكة اللصوص .

الفصل الثاني والعشرون

ليلة تحت السلاح

كان سكان (ساحة العجائب) من القتلة واللصوص ينصرفون في هذا الوقت من الليل إلى صخبهم ولهوهم ومجونهم .

ولكن لو أتيح لأحد الدخول إليها لعجب من الهدوء السائد فيها ، ولرأى هؤلاء القتلة واللصوص قد تفرقوا جماعات يتهامسون فيما بينهم وكأنهم يعدون لأمر خطير .

ونستطيع أن نميز بين هؤلاء ثلاث مجموعات التفت حول ثلاثة أشخاص يعرفهم القارئ : الأول ماتياس سبيكالي ملك الغجر بملابسه الغريبة وأصابعه التي تلتمع فيها الخواتم الذهبية ، والثاني صاحبنا ملك تاونس المدجج بالسلاح ، والثالث كلوبان تريفو الذي يوزع بصوت وقور ترسانةَ الأسلحة التي نهبها من مكان لا يعلمه سوى الله .

وكان هؤلاء اللصوص والقتلة يختارون أسلحتهم ويهزونها في الهواء ، حتى المقعدين منهم أو الذين بترت سيقانهم كانوا يمسكون بأسلحتهم ويتدحرجون تحت أقدام أصحابهم كأنهم الصراصير الضخمة .

وأما في ناحية بعيدة عن هؤلاء ، فقد التفّت عصابة من الشباب المرحين حول فتى أشقر الشعر محمر الأنف تسلح تسليحاً جيداً يمازحونه ويضحكون لنكاته .

في زاوية منعزلة من حانة الساحة قرب المدفأة جلس فيلسوف يتأمل ورجلاه في الرماد وعيناه إلى اللهيب ، إنه بيير غرينغوار .

صاح كلوبان ترويفو بحرافيشه :

– هيا . أسرعوا .. خذوا أسلحتكم .. سننطلق بعد ساعة .

وصرخ ذلك الفتى ذو الشعر الأشقر :

– نويل .. نويل .. أنا سيد القتلة ، اسمي يوهان فرولو من أشراف القوم ، سوف تكون غزوة رائعة ، نحن رجال شجعان فلنحاصر الكنيسة ولنكسر أبوابها ، ولننقذ الفتاة الحسناء من براثن القضاة ، نفذوا هذا في لمحة عين ، إن قضيتنا عادلة ، انهبوا الكنيسة .. وانتهى الأمر ، سنأخذ كازيمودو معنا .. هل تعرفون كازيمودو يا إخوتي ؟ هل رأيتم كيف عذبوه يوم الاحتفال ؟

انتهى كلوبان تريفو من توزيع الأسلحة ، فدنا من غرينغوار الذي كان هائماً في أحلام يقظته وسأله :

– بأي شيء يفكر صاحبي ؟

فأجاب غرينغوار :

– لا أدري ، لقد وجدت آلاف الأشياء في هذه النجوم التي تطرز عمق المدفأة السوداء .

وخرج كلوبان ونادى بصوت راعد :

– منتصف الليل !

سارع حينئذٍ الجميع في الخروج إلى الساحة وقد ارتفع صليل أسلحتهم ، فوقف كلوبان فوق المصطبة وصاح :

– رصوا الصفوف .. أيها الحرافيش !

فساد الهدوء واصطف الجميع في صفوف متراصة .

وأضاف :

– ستعبرون الآن باريس دون أن تلفتوا إليكم الأنظار ، وكلمة السر هي (شعلة العبث) ولا تنيروا المشاعل إلا أمام نوتردام .. هيا سيروا !

الفصل الثالث والعشرون

الهجوم

لم ينم كازيمودو تلك الليلة وقد أنهى جولته التفقدية في الكنيسة ، فأحكم إغلاق الأبواب كلها ودعّمها بمتاريس الحديد حتى بدت كأنها أصلب من الجدران ، ومرّ به كلود فرولو وكان مهموماً أكثر من المعتاد ، وقد تعود كازيمودو أن يضربه القس أو يسيء إليه ولكنه يخضع له باستسلام وإخلاص .

ألقى كازيمودو نظرة على النواقيس التي طال إهماله لها ، ثم صعد قمة البرج الشمالي واتكأ عليه وجعل يتفرج على باريس ، كانت الليلة مظلمة ، ولم تكن باريس في ذلك العهد مضاءة ، فكأنها بحر من البيوت المتراكمة يقطعها نهر السين بلمعانه الرمادي ، ولم يلمح كازيمودو سوى نور بعيد يلتمع من ناحية باب سان أنطوان ، ولا ريب أن هناك بعض

الساهرين . أحس قارع النواقيس بشيء ما في داخله يقلقه ولا يعرف له تفسيراً ، وقد أخذ حذره منذ عدة أيام ، إذ لاحظ أن بعض رجال الشرطة يطوفون حول الكنيسة ولا يرفعون أعينهم عن ملجأ الفتاة ، وكأنما بينهم وبينها ثأر قديم . ولا بد أن يفعلوا شيئاً للأخذ به . وظلّ فوق البرج يقظاً .

فجأة أحس كأن رصيف النهر يموج بأشباح غامضة .

ثم تحولت إلى شارع بارفيس المؤدي إلى واجهة نوتردام ، ولم يستطع أن يميز عددهم في الظلام ، وتأكد له أنهم لا يحدثون ضجة لأن نوافذ البيوت المطلة على الساحة ظلت مغلقة ، ولكنهم يتدفقون إلى الساحة بانتظام ، والتمع النور فجأة ، وبلحظة واحدة اشتعلت سبعة أو ثمانية مشاعل في وقت واحد ، ثم تنقلت فوق الرؤوس يتراقص لهيبها .

استطاع كازيمودو أن يميز حينئذٍ جمهوراً غفيراً من الرجال والنساء في أسمالهم البالية ، مسلحين بالمعاول

والفؤوس والمناجل والمذاري تلتمع نصالها تحت أضواء المشاعل . تناول كازيمودو فانوسه وهبط إلى المصطبة ما بين الأبراج ليرى عن كثب ويقدّر وسائل الدفاع .

وصل كلوبان ترويفو أمام بوابة نوتردام الكبرى وقد رتب كتيبته فصائل وصعد إلى الحاجز المرتفع في الساحة وصاح بصوت أجش :

– أتوجه إليك ، لويس دي بومون ، أسقف باريس والمستشار في محكمة المجلس ، أنا كلوبان ترويفو ملك تاونس وأمير الحرافيش وأسقف المجانين وأقول لك : إن أُختنا التي أُدينتْ بالسحر ظلماً قد التجأت إلى كنيستك ، فأنت مسؤول عن أمنها وسلامتها ، ولكن محكمة المجلس النيابي ستستردها بموافقتك لتشنقها غداً في ساحة كريف ، لذلك نطالبك بأن تعطينا الفتاة إذا أردت إنقاذ كنيستك وإلا انتزعنا الفتاة ونهبنا الكنيسة ، وعلى هذا فإني أغرس رايتي هنا ، والويل لك يا أسقف باريس !

لم يسمع كازيمودو للأسف هذا الكلام الذي يدل على الكبرياء المتوحشة ، وقدّم أحد المجرمين الراية لكلوبان فغرسها في بلاطات الشارع ، وكانت عبارة عن مذراة ذات سنين تتدلى منها جيفة حيوان ، ثم التفت ملك تاونس إلى كتيبته وأجال بصره فيها وصاح :

– تقدموا يا أبنائي .. فصيلةَ المطارق !

فخرج من بين الصفوف ثلاثون رجلاً مفتولي العضلات ، ومعهم المطارق والكماشات ، وعلى أكتافهم قضبان الحديد ، وجعلوا يعالجون باب الكنيسة الرئيسي بالكماشات والرافعات ، ولكن الباب صمد أمامهم . صاح كلوبان :

– تشجعوا يا رفاق ! وقطع كلامَه ضجّة هائلة ، فقد سقط عمود ضخم من أعلى ، فأصاب عشرة من المجرمين على درجة الكنيسة ، ثم قفز على بلاط الطريق كأنه صوت

مدفع وهرس من جمهرة الآخرين أيادي وأذرعاً وتعالت صرخاتهم .

وما إن زالت عن الملك تاونس الدهشة حتى صرخ بأتباعه :

– الخبثاء يدافعون .. إلى الأكياس .. إلى الأكياس .

وأخرج الحرافيش من أكياسهم الحجارة وبدؤوا يقذفون بمقاليعهم واجهة الكنيسة .

ونهض على هذه الأصوات سكان البيوت المجاورة ، وفتحت النوافذ وأشعلت الشموع ، فصاح كلوبان :

– اقذفوا النوافذ !

لم يجرؤ الحرافيش على مهاجمة الباب الرئيسي وكانوا يراقبونه من بعيد ، ولم يظهر أحد من الكنيسة ، وتجمد المهاجمون لأمر لا يعلمونه ، وحثهم كلوبان :

– المطارق .. المطارق .. اخلعوا الباب !

فلم يستجب له أحد ، فقال كلوبان :

– أيها الرجال هل تخافون من عارضة خشبية ؟

فقال أحد الحدادين :

– لسنا خائفين من العارضة .. ولكن الباب مدعم بالقضبان الحديدية ولا تؤثر فيه الكماشات .

فسأله كلوبان :

– وكيف نخلعه إذن ؟

– يلزمنا عمود برأس كبش !

فأسرع ملك تاونس بشجاعة إلى الدعامة التي سقطت عليهم ووضع رجله فوقها وقال :

– هاهو رأس الكبش قد أرسله الخبثاء إلينا .

ورفع يده بالتحية إلى ناحية الكنيسة :

– شكراً لكم يا خبثاء !

وكان لكلامه تأثير في أصحابه ، فحمل مائتا رجل العمود كأنه ريشة خفيفة ، وجعلوا يصدمون به باب الكنيسة ، فيصدر عنه صوت كالطبل يتردد صداه في أرجاء

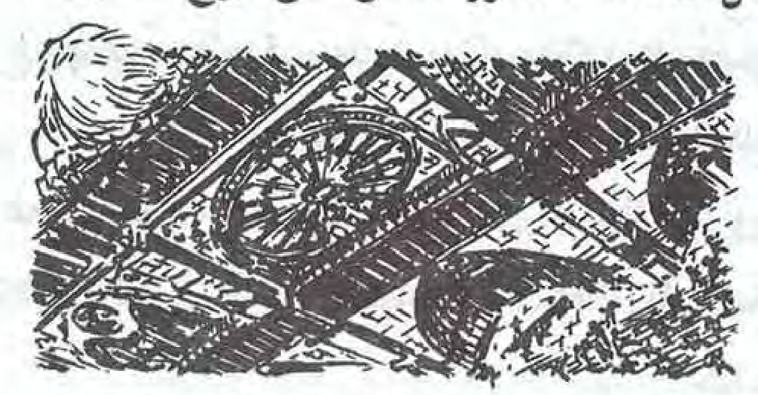
الكنيسة ، في تلك اللحظة أمطرهم حجارة ضخمة تساقطت على المهاجمين .

وصاح يوهان :

– هل سقطت حجارة الأبراج فوقنا ؟

ولا شك أن القارئ قد عرف أن كازيمودو وراء هذه المقاومة كلها ، وقد خدمته المصادفة ، إذ أن البرج الأوسط كان قيد الإصلاح وانتشرت حوله الحجارة الضخمة والدعامات الخشبية وقطع الرصاص .

ووجد كازيمودو فيما حوله ترسانة كاملة يحاربهم بها ، فحمل الدعامة الهائلة ورماها من أعلى البرج كما رأينا .



ورأى كازيمودو المهاجمين يتفرقون كما لو نفخت في حفنة رماد ، واستغل تراجعهم فنقل إلى حافة الحائط الأعلى الحجارة والرمل وحتى أدوات البناء بانتظار المعركة القادمة ، وحين رآهم يهاجمون الباب برأس الكبش رمى عليهم ما جمعه على الحافة فظنوا أن الكنيسة تنهار فوق رؤوسهم .

لاحظ كازيمودو أن سلاحه هذا لا يكفي لصد المهاجمين فتلفت حوله يتفقد ما يملكه من ذخيرة ، فوجد كتلاً من الرصاص الذي تركه العمال لإصلاح أسطحة الكنيسة ، فأشعل ناراً كبيرة أمام المزراب وذوب فيها كتل الرصاص ، ثم دفعها بعمود داخله فتساقطت مطراً ذائباً من اللهيب فوق جموع المهاجمين ، فأحرقت عدداً منهم ، وتركت ثقوباً سوداء على بلاط الشارع كأنها مطر أسود فوق أرض غطاها الثلج ، وارتفعت أصوات الاستغاثة والذعر من كل مكان ، ورمى المهاجمون العمود الذي يحملونه فوق الجثث المتراكمة ،

وهرب الشجعان والجبناء معاً وأصبحت الساحة خالية منهم .

وعضّ كلوبان على كفيه كالمسعور :

– يستحيل علينا الدخول .

وهمهم الغجري ماتياس هنغاري :

– إنها كنيسة عتيقة مسحورة .

وصرخ ملك مصر :

– ألا ترون هذا الشيطان الذي يرقص أمام النار ؟

قال كلوبان :

– ألا توجد وسيلة لكسر هذا الباب ، يجب أن نجد نقطة ضعف في هذه الكنيسة المسحورة ، ثقباً في الجدار أو حجراً متزعزعاً أو شيئاً ما .

وسأل كلوبان :

– أين التلميذ الصغير يوهان الذي كان شديد الحماسة ؟

فأجابه أحدهم :

– لقد مات لا ريب ، فنحن لا نسمع ضحكاته .

– والأستاذ بيير غريغوار ؟

فقال أندراي الأحمر :

– لقد اختفى حين وصلنا إلى جسر الشانجور .

فخبط كلوبان الأرض بقدمه :

– هو الذي حرضنا على الهجوم ثم تخلى عنا .. الجبان الثرثار .

وناداه أندراي الأحمر :

– سيد كلوبان .. هاهو التلميذ يوهان .

وكان يوهان يجري وهو يسحب وراءه سلماً طويلاً ، وحين اقترب من كلوبان هتف : النصر لنا .

فسأله كلوبان : ماذا نفعل بالسلم ؟

– سأقول لك يا ملك تاونس ، أترى هذا الصف من التماثيل ذات الملامح البلهاء تحت البوابات الصغيرة ؟ إن في

آخر الممر باباً لا يغلق أبداً ، وحين أصعد إليه بالسلم أدخل الكنيسة .

– إذن دعني أصعد أولاً .

– لا يا رفيق ، السلّمُ سُلّمي .

فقال كلوبان :

– ليخنقك الشيطان ، لا أريد أن أكون تابعاً لأحد .

– إذن ابحث عن سلم آخر .

وجعل يوهان يجري إلى الساحة ويسحب السلم وراءه منادياً : إلي يا أولاد .

ورُفع السلم بلمح البصر وأُسند إلى الجدار فوق إحدى البوابات الجانبية ، وصعد يوهان متأنياً يمسك السلم بيد ومقلاعه بيد أخرى ، وتبعه المجرمون ، كل واحد منهم على درجة من درجات السلم ، فلو نظرت إليهم من بعيد حسبتهم ثعباناً يتسلق الكنيسة .

وصل يوهان إلى السطح وخطا إليه وارتفعت تصفيقات الحرافيش ، وحين ظن نفسه سيد هذه القلعة أطلق صرخة انتصار ، ولكنه توقف فجأة وقد سيطر عليه الخوف إذ رأى خلف تمثال أحد الملوك كازيمودو مختبئاً وعينه تقدح بالشرر .

ما كادت تطأ قدم يوهان السطح حتى هجم كازيمودو على السلم ، فأمسك به من طرفيه ورفعه إلى أعلى ثم رماه بعيداً في الساحة ، كأنما تلبسته قوة خارقة لقوى الإنسان ، وتحولت صرخات الاستحسان إلى نداءات الاستغاثة ، وقد سقط السلم وتحطم بمن عليه .

ووقف كازيمودو يتفرج على هذا المشهد بهدوء .

أما يوهان فرولو فقد وجد نفسه في موقف حرج ووقف وحيداً في الردهة يفصله عن أصحابه حائط علوه عشرون قدماً ، وحينما كان كازيمودو منشغلاً برمي السلم ، جرى يوهان إلى الباب فوجده مقفلاً ، لقد أغلقه كازيمودو وراءه ،

فاختبأ وراء أحد التماثيل لا يجرؤ على التنفس ، وهو يرقب الأحدب المتوحش بنظرات مذعورة .

لم يهتم الأحدب به بادئ الأمر ، ثم نهض فجأة وتقدم إليه ، فتناول يوهان مقلاعه وهتف به :

- سوف أبدل اسمك .. لن ينادوك الأعور بل الأعمى .

ورمى حجراً فأصاب كتف كازيمودو فجرحه جرحاً خفيفاً ، فجذب كازيمودو المقلاع من يده وكسره على ركبتيه ، ثم قفز كالجرادة وسقط على يوهان وألصقه بالحائط ، ثم أمسك بيد واحدة يدي يوهان معاً ، وبدأ ينـــزع عنه سلاحه ، السيف ، الخناجر ، الخوذة ، والترس ، والدرع . وكان يرميها تحت قدميه واحداً بعد الآخر ، ولكن يوهان لم يفزع منه وكأنما استسلم لمصيره فبدأ يضحك منه ويسخر من عاهته ، فضرب كازيمودو به الحائط فقتله .

حينئذٍ ارتفعت الأصوات من الأسفل تنادي بالويل وتدعو إلى الانتقام ، واختلطت أصوات هؤلاء الحرافيش ،

وكلٌّ يتكلم بلغة بلده ولهجة قومه ، وكأن مصرع يوهان قد بث فيهم روح النضال والغضب لعجزهم عن اقتحام الكنيسة يحميها هذا الأحدب .

وتنادَوْا فجيء بالسلالم وأُسنِدت إلى الجدران من كل النواحي ، وتضاعف عدد المشاعل يحملها رجال مصممون على الموت ، وكانت الساحة قد أضيئت بآلاف المشاعل وزالت حجب الظلام ، وانعكس النور على صفحة السماء وظهر البرجان الكبيران لكاتدرائية نوتردام كأنهما جبلان يبرزان وسط الظلام ، وبدت المدينة كأنها استيقظت من غفوتها ، وسعت إلى الكنيسة بأصوات التهديد والوعيد والسباب . ورأى كازيمودو هذا المد من الأعداء فارتجف خوفاً على الغجرية ، وشاهد الوجوه الغاضبة تقترب من موضعه شيئاً فشيئاً ، فطلب من الله معجزة وهو يقلب كفيه يائساً .

الفصل الرابع والعشرون

كلمة السر

هبط غرينغوار شارع سانت أنطوان بسرعة حصان هائج ، ووصل إلى باب بوديه ومشى مباشرة إلى الصليب الحجري القائم وسط الساحة لمقابلة الرجل الجالس على الدرج مرتدياً ملابس سوداء .

قال غرينغوار :

– أهو أنت يا أستاذ ؟

– لقد أحرقت أعصابي يا غرينغوار ..

وأعلن المنادي في ساحة سان جيرفيه الواحدة والنصف صباحاً .

– ليس الذنب ذنبي وإنما هو ذنب الحراس ، لقد نجوت بأعجوبة وقد كدت أشنق ، إنه قدري .

– هيا لنسرع ، هل تعرف كلمة السر ؟

– نعم إنها (شعلة العبث) .

– ولولاها لا نستطيع الدخول إلى الكنيسة ، لأن القتلة سدوا كل الطرقات ، ولكنهم يلاقون المقاومة لحسن الحظ ، لعلنا نصل قبل فوات الأوان .

– نعم يا أستاذي ، ولكن كيف سندخل إلى نوتردام ؟

– لدي مفاتيح الأبراج .

– وكيف سنخرج منها ؟

– خلف السياج باب صغير يؤدي إلى الباحة ومنها إلى النهر ، لقد أخذت المفتاح هذا الصباح ، وربطت قارباً إلى الرصيف .

وهبط الاثنان إلى المدينة بخطوات سريعة .



الفصل الخامس والعشرون

طار العصفور

يذكر القارئ الموقف الصعب الذي تركنا فيه كازيمودو ، فقد اجتاحت الجموعُ الأحدب الشهم من كل جانب ، ولم يفقد شجاعته ولكنه فقد أمله في إنقاذ الإسميرالدة ، لم يكن يفكر في نفسه بل بها ، وكان يجري في الردهات ، وكادت كنيسة نوتردام تسقط بين أيدي اللصوص ، وفجأة ارتفعت أصوات سنابك الخيل تصطك على حجارة الساحة ، وملأت الطرقات عساكر الملك المدججة بالسلاح وسُمِعَ هتافهم : اقتلوا اللصوص .

ودافع اللصوص عن أنفسهم وقد فقدوا الأمل في النجاة ، واختلط الرجال بالفرسان ، وسمع الجيران أصوات العساكر ففتحوا النوافذ ، وبدأت الكُرات تنهمر على

الحرافيش من كل جانب فانهزموا مخلفين وراءهم ركاماً من الموتى .

حينما رأى كازيمودو هزيمة المهاجمين ، ولم يكن قد توقف عن القتال ركع على ركبتيه وهو يشكر الله على النصر .

وجرى في نشوة انتصاره إلى الحجرة التي حرم على نفسه دخولها ، وليس في ذهنه سوى فكرةِ زفّ بشرى النصر لتلك المرأة التي ناضل من أجلها ، وحين دخل الغرفة وجدها خالية .



أثناء مهاجمة اللصوص الكنيسة كانت الإسميرالدة نائمة ، وسرعان ما أيقظتها الأصوات المتصاعدة من الساحة ، وثغاء عنـــزتها القلقة ، وسمعت أصواتاً تمشي قريبة منها ، ودخل إلى حجرتها رجل يحمل فانوساً فأطلقت صرخة فزع قصيرة ، فقال لها صوت تعرفه :

– لا تخافي إني بيير غرينغوار .

فاطمأنت لرؤية الشاعر ، وكان معه شخص طويل القامة مرتدياً السواد من قمة رأسه إلى قدميه لا ينطق بكلمة .

وسألت الغجرية غرينغوار بصوت هامس :

– من معك ؟

– اطمئني ، إنه أحد أصدقائي .

ثم وضع الفيلسوف الفانوس على الأرض واحتضن العنـــزة جالي بين ذراعيه وقال للإسميرالدة :

– إن حياتك أنت وجالي في خطر ، فقد تقرر استعادتكما وإعدامكما ، وقد جئنا لإنقاذك فاتبعينا .

فسألته مرعوبة :

– هل تقول الحق ؟

– نعم .. إنه الحق .. أسرعي !

أمسك غرينغوار بيدها وحمل صاحبُه الفانوسَ وسبقهما .

وسيطر الرعب على الفتاة ولكنها مشت معهما .

وركضت العنـــزة وراءهم فرحة بلقاء غرينغوار ، فكان يتعثر في مشيته وهي تدس قرنيها بين قدميه .

نزلوا درجات الأبراج مسرعين وعبروا الكنيسة الغارقة في الظلمة والسكون ، وطرقات المهاجمين تتردد بين أرجائها حيناً بعد حين فتضاعف من سكونها ، وخرجوا إلى الساحة من الباب الأحمر .

وتوجهوا إلى قطعة من الأرض حول سور المدينة فكانت تصلهم الأصوات مخنوقة وأقل ارتفاعاً ، وسبقهم الرجل بالفانوس إلى رصيف مهجور وقد اختبأ فيه قارب صغير .

كان أول شيء فعله غرينغوار حين صعدوا إلى القارب أن وضع العنـــزة في حجره ، وجلس في مؤخرة القارب ، والتصقت به الفتاة كأنها تحتمي به من جزع خفي أصابها لرؤية صاحبه ذي الملابس السوداء .

وسار القارب هادئاً نحو الضفة اليمنى من نهر السين ، والفتاة ترقب الرجل الغريب خائفة لسبب لا تعلمه ، وقد انعكس ظله على المركب كأنه شبح مهيب ، ولم يكن قد تكلم حتى الآن بل يضرب بالمجذافين على سطح الماء .

– قال غرينغوار فجأة :

– حين وصلنا إلى الساحة عبر الطرقات فهل لاحظت يا صاحب النيافة ذلك الفتى الذي أمسك به الأحدب وضرب به الحائط ؟ إن نظري ضعيف فلم أتعرف عليه ، فهل تعرف من يكون ؟

لم يجبه الرجل ولكنه توقف عن التجذيف فجأة وكأنما شُلّتْ يداه وسقط رأسه على صدره وسمِعَتْهُ يتحسر أسفاً .

وتحرك القارب باتجاه التيار بضع لحظات ، ثم استقام الرجل وأمسك بالمجذافين ، وجعل يوجه القارب ضد التيار ، واجتاز نقطة التقاء الجزيرة بنوتردام واتجه إلى بور أوفوان . وقال غرينغوار :

– إن صراخهم يرتفع الآن .

وأصاخوا بسمعهم ، فجاءهم هتافات الانتصار ، ورأوا لمعان خوذ الجنود على الأبراج وأسطحة الكنيسة تنعكس عليها أضواء المشاعل ، وسمعوا أصواتهم تنادي : " الغجرية .. الساحرة .. الموت للغجرية ! " .

وضعت البائسة وجهها بين كفيها وضاعف الرجل من تجذيفه نحو الضفة ، حتى حاذاها القارب .

توجه الرجل نحو الغجرية يساعدها على النــزول ، ولكنها تعلّقت بكم غرينغوار الذي دفعها عنه وحمل العنــزة واختفى بين البيوت ، ووجدت نفسها وحيدة على الرصيف مع الرجل المجهول .

فارتجفت رعباً ، وحاولت أن تتكلم ، تصرخ ، تنادي غرينغوار ، فاحتبس لسانها في فمها ولم يسمع صوتها ، وفجأة أحست بيد الرجل تمسك بيدها ، وكانت يداً باردة قوية ، واصطكت أسنانها وأصبح لونها شاحباً شحوب ضوء القمر الذي ينير المكان . لم يقل الرجل شيئاً ، وصعد بخطوات سريعة نحو ساحة كريف وهو ممسك بيدها ، ولم تجدْ بُدّاً من الهرولة لمتابعته .

وكانت تستعيد قوتها من حين إلى آخر ، وتقول بصوت يقطعه صوت أقدامهما على الطريق :

– من أنت ؟ من أنت ؟!

ولا يجيبها .

وسارا على طول الرصيف حتى وصلا ساحة فسيحة يضيئها نور القمر ، إنها ساحة كريف ، وفي وسطها صليب أسود مرتفع ، كان مكان الإعدام فعرفته ، وعلمت أين

تكون ، وكشف الرجل القبعة عن رأسه . فتمتمت مذعورة : أعرف أنه هو .

إنه القس ، الذي صار كالطيف حين انعكس عليه ضوء القمر وأصبح شاحب اللون . قال لها :

– اسمعي .. أريد أن أنقذك .

وارتجفت لهذا الصوت الذي لم تسمعه منذ زمن طويل .

فهل تصدقه ؟ إنه هو الذي دبّر هربها ولكن .. ألم يفعل هذا لخداعها ؟ وكان غرينغوار يعتبره صديقه .. أفلا يكون غرينغوار مخدوعاً به .. وأين هو الآن ؟

– اتركني .. إني أكرهك .. أنت مجرم !

وسقطت تحت نصب الصليب كأنها تستجير به ، وتأثر القس لقولها " مجرم " فهل يستأهل هذه الصفة ؟

وقال يحدث نفسه :

– قابيل ، ماذا فعلت بأخيك ؟

لولا ألاعيبه الشيطانية لعاش أخوه ذلك الفتى الأشقر ولما تحطم رأسه الجميل على جدار بيت الله .

وصعدت الدموع غزيرة إلى عينيه وسالت على خديه .

إن أخاه الصغير يوهان مات بسببه .

– كم أحببتُه ! وكم أعززتُه ! ولكني قتلته ، لقد مات بسببي .. مات بسبب هذه المرأة .

وحاول إقناعها مرة ثانية بصدق نواياه فقال :

– أستطيع إنقاذك .. وحدي .. تعالي !

فأجابته بإباء :

– لا .

فقال :

– موتي إذن تكفيراً عن خطاياك !

أشرقت الشمس ، ولم يكن وراء النوافذ أحد ، وكنت ترى في البعيد من أعلى أبراج نوتردام التي تطل على ساحة كريف رجلين اتشحا بالسواد تحت نور الشمس .

وقف الجلاد أمام الفتاة وأحاط عنقها بحبل ، فأحست البائسة بخشونة حبل القنب حول عنقها .

فاهتزت وصرخت بأعلى صوتها :

– لا .. لا .. لا أريد أن أموت .

الفصل السادس والعشرون

من أعلى الأبراج

حين رأى كازيمودو أن الحُجرة خالية من الغجرية وأنها قد اختطفت أثناء دفاعه عنها ، أمسك شعره بيديه وصرخ دهشة وألماً ، ثم بدأ يجري في أنحاء الكنيسة يبحث عن الغجرية ، ويصرخ صرخات مرعبة في أركانها ، وينثر شعره الأحمر على البلاط . في تلك اللحظة دخل العساكر منتصرين باحثين عن الغجرية ، وساعدهم الأحدب في بحثهم ظاناً أن الحرافيش هم أعداؤها .

وتابع كازيمودو وحده بحثه عنها ، وكان يمر بالمكان نفسه عدة مرات مطأطئ الرأس ساكتاً لا يكاد يتنفس ، وحين مر بالغرفة لم يجرؤ على دخولها ، ثم استجمع شجاعته ودخلها فلم يجد أحداً ، فأطفأ شعلته تحت قدميه ، ودون أن يتكلم أو يتحسر ضرب الجدار برأسه وسقط مغشياً عليه .

وتذكر بين الحلم واليقظة أن رئيس الأساقفة كلود فرولو هو الذي يحمل مفتاح الدرج المؤدي إلى الغرفة ، وتذكر آلاف التفاصيل التي تؤكد له أنه هو الذي اختطفها لكي يسلمها إلى أعدائها ، ورآه من بعيد يتمشى بخطا بطيئة حول البرج الشمالي ، ولكن وجهه ينظر إلى الضفة اليمنى من نهر السين ، فنهض كازيمودو وتبعه .

كان يمشي وراءه بخطى الذئب ليرى أي شيء جذب انتباه رئيس الأساقفة ، وكان غارقاً في تأملاته حتى إنه لم ينتبه إلى الأحدب وراءه .

وأما النار التي أشعلها كازيمودو بين الأبراج فقد انطفأت ونظفت الساحة من الجثث المتراكمة بأن ألقيت في السين .

في الأعلى .. هناك فوق الأبراج ارتفعت زقزقة العصافير ، ولكن القس لم يلتفت إليها ، فهو من أولئك الناس الذين لا يبصرون نور الصباح ولا العصافير والأزهار ،

ومن سعة هذا الأفق المحيط به لم يكن يتأمل سوى نقطة واحدة .

وتحرق كازيمودو شوقاً لسؤاله عما فعل بالغجرية ، ولكن يبدو على القس في تلك اللحظة أنه بعيد عن الدنيا كلها .

كان صمته مهيباً لم يجرؤ كازيمودو على توحشه أن يزعجه ، ولم يجد جواباً لما يجيش في نفسه سوى متابعة الاتجاه الذي يرمي إليه بصره ، وتوقفت نظرات الأحدب على ساحة كريف ، ورأى ما ينظر إليه القس ، رأى السلم الذي أسند إلى منصة الإعدام الدائمة .

وكان في الساحة بعض الناس وكثير من الجنود ورجل يجر على بلاط الطريق شيئاً أبيض قد تعلق به شيء أسود ، ورآه كازيمودو بوضوح ، إنه يرقى سلم منصة الإعدام ، حاملاً امرأة فوق كتفه ، فتاة مرتدية ثياباً بيضاء وفي عنقها حبل معقود ، وعرفها كازيمودو .. إنها هي . وارتقى الرجل

السلم لكي يُحْكِم شدّ الحبل حول عنقها ، وجثا القس على ركبتيه ليرى بوضوح أكثر .

دار الحبل حول ذاته عدة مرات ورأى كازيمودو جسد الغجرية يرتجف ، ومد القس عنقه وعيناه قد جحظتا من محجريهما ، يرى الرجل والمرأة من بعيد . في تلك اللحظة المرعبة انطلق من حنجرة القس ضحك شيطاني ، ضحك لا يصدر عن إنسان ، والتمع وجه القس بضوء شاحب ، ولم يسمع كازيمودو ضحكه بل رآه .

تراجع الأحدب عدة خطوات ، ثم هجم على القس هائجاً وجعل يديه في ظهره ودفع كلود فرولي نحو الخواء الذي ينظر إليه ، وصرخ القس :

– اللعنة !

وهوى ، ولكن المزراب الذي كان تحته أوقف سقطته فتمسك به بيديه فاقداً الأمل ، وفتح فمه ليصرخ من جديد

فرأى فوقه وجه كازيمودو المرعب المتعطش للانتقام ، فسكت .

كان الفراغ تحته ، وسقطةٌ ارتفاعُها مائتا قدم بانتظاره ، وكان بوسع كازيمودو أن يمد يده إليه لينتشله منها ولكنه لم ينظر إليه ، بل ينظر إلى الغجرية ، واتكأ الأحدب على الإفريز الذي وقف بجانبه القس قبل قليل ، ولم يكن يهمه في هذا العالم سوى ذلك الثوب الأبيض الذي يتأرجح معلقاً بحبل المشنقة ، كان صامتاً ساكناً مصعوقاً وسيل من الدمع ينهمر من عينه الوحيدة ، تلك العين التي لم تذرف الدمع قبل الآن سوى مرة واحدة .



أثناء ذلك كان القس يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، والدم ينضح من أظافره على الحجر ، وركبتاه التصقتا بالجدار .

كان شيئاً رهيباً سكوتُ هذين الرجلين ، على حين تفيض روح القس على بعد خطوتين من كازيمودو ، وكان كازيمودو يبكي وهو ينظر إلى ساحة كريف .

رأى القس أن المزراب ينوء به فلم يتحرك ، واعتنق المزراب وقد حبس أنفاسه ، ولم يكن شيء يدل على حياته سوى خفقان صدره ، وتأمل واحدةً تلو أخرى تلك المنحوتات الحجرية ، تراقبه من فوق الأبراج ولكنها لا ترثي له ، كل شيء مما حوله حجر ، أمام بصره تماثيل الوحوش من حجر ، وتحت قدميه حجر ، والساحة مرصوفة بالحجر ، وكازيمودو ساكناً يبكي كقطعة من حجر .

تجمع في الساحة بعض الفضوليين يتساءلون عمن يكون هذا المجنون الذي يلهو بهذه اللعبة الخطيرة ، وسمع القس حديثهم الذي يصل إليه واضحاً :

– ستدق عنقه .

وكازيمودو يبكي .

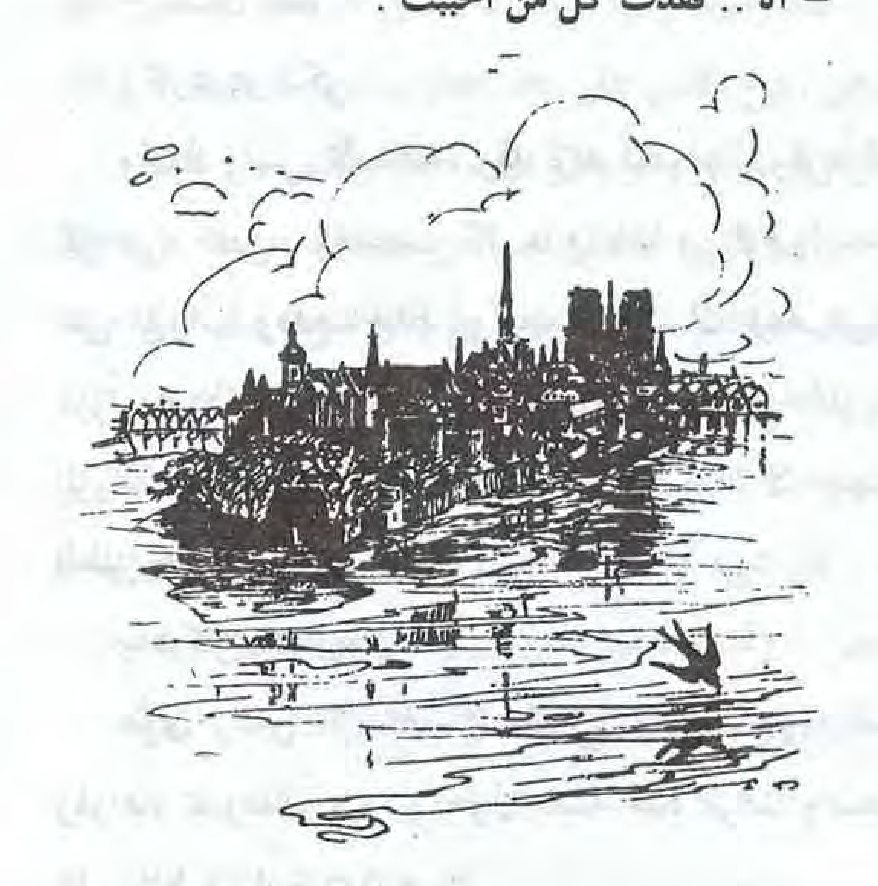
وأدرك رئيس الأساقفة ، وقد أزبد فمه غضباً وفزعاً أن كل شيء انتهى ، واستجمع كل ما في ذاته من قوة واستقام على المزراب ودفع الحائط بركبتيه ، وأمسك بيده إفريزاً بارزاً واستطاع أن يرتفع قيد قدم واحدة ، ولكن انهار به المزراب وانشق صدر ثوبه الكهنوتي ، وأحس أن لا جدوى فأطلق يديه .

رآه كازيمودو يهوي .

هوى رئيس الأساقفة في الفراغ وسقط على رأسه وذراعاه ممدودتان ، ودار حول نفسه عدة مرات واستقر على بلاط الشارع دون حراك .

رفع كازيمودو عينه عن الثوب الأبيض المتطاير في الهواء ، ونظر إلى رئيس الأساقفة الذي فقد شكله الإنساني ممدوداً على البلاط ، وقال منتحباً وصدره يعلو من الأنين :

– آه .. فقدتُ كل من أحببت .



الفصل السابع والعشرون
نهاية

مساء ذلك اليوم ، حينما حضرت الهيئة الدينية لتشهد رفع جثة رئيس الأساقفة المهشمة من الساحة ، كان كازيمودو قد اختفى من كاتدرائية نوتردام .

ودار لغط كثير حول هذه القضية ، وقالوا إن مصرع القس قد تصادف مع اختفاء كازيمودو الشيطان طبقاً لعقد بينهما ، إذ أن الشيطان كازيمودو قد حطم جسد القس ، واستل منه روحه كما يفعل القرد حين يكسر جوزة الهند ليأكل لُبَّها ، لذلك لم يدفن رئيس الأساقفة في مقابر المؤمنين .

أما بيير غرينغوار فقد استطاع إنقاذ العنـــزة وأحرز نجاحاً باهراً في المسرح التراجيدي ، والظاهر أنه بعد أن ذاق طعم الفلسفة والهندسة المعمارية والعلوم السرية وكل هذه الأعمال الجنونية عاد إلى التراجيديا التي هي أكثرها جنوناً .

ويمكننا القول إن نهايته كانت تراجيدية .

أما فوبوس دي شاتوبرس فقد تزوج ابنة عمه الحسناء فلورديلي وعاشا حياة هانئة ، ولم يزعم أحد أن مزاج الضابط قد تبدل ، إذ يراه الناس دائم الغمّ والتفكير .

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

أحدب نوتردام

فيكتور هيغو

RABIE

H.FARHAT